الأدب العالمي للناشئين

الأميرة الصغيرة



فرانسيس هودجسون بيرنت

الأميرة الصغيرة

الأميرة الصغيرة

تأليف
فرانسيس هودجسون بيرنت

ترجمة
فايقة جرجس حنا



الأميرة الصغيرة

A Little Princess

فرانسيس هودجسون بيرنت

Frances Hodgson Burnett

الطبعة الأولى ٢٠١٢م
رقم إيداع ١٦٤١٣ / ٢٠١١

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه
٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية
تليفون: ٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ +　　**فاكس:** ٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: http://www.hindawi.org

بيرنت، فرانسيس هودجسون.
الأميرة الصغيرة / فرانسيس هودجسون بيرنت.
تدمك: ٩٧٨ ٩٧٧ ٥١٧١ ١٢ ٢

١–القصص الإنجليزية

أ–العنوان

٨٢٣

رسم الغلاف: حنان الكرارجي، تصميم الغلاف: سيلفيا فوزي.

المحتويات

الفصل الأول

سارا

منذ زمن ليس ببعيد، وفي يوم شتاء غائم، جلست فتاة صغيرة في عربة بصحبة والدها، وأخذت تحدق عبر النوافذ في شوارع لندن الواسعة التي يغشِّيها الضباب. بدا لها وكأنهما كانا يتنزهان البارحة فحسب في شوارع الهند المُشمسة. لكن هذا لم يكن البارحة بالطبع؛ إذ قاما برحلة بحرية طويلة حتى وصلا إلى هنا في هذا المكان الجديد الغريب.

كانت سارا في السابعة من عمرها فحسب، لكنها بدت أكبر كثيرًا من عمرها الحقيقي، وكأنها عاشت دهرًا.

قالت سارا عندما بدأت العربة تُبطئ السير: «أبي، أبي؟»

نظر كابتن كرو إلى ابنته، وقال: «نعم يا سيدتي الصغيرة؟»

كان كابتن كرو من نوعية الرجال الذين يتسمون بالصبيانية وخلو البال، وكان يتقلد منصبًا في الجيش البريطاني في الهند. وكان يدلِّل ابنته باسم «سيدتي الصغيرة»، لأنها بدت ناضجة وحكيمة أكثر بكثير مما يوحي عمرها. وأحبَّت سارا الاسم الذي يناديها والدها به.

همست الفتاة: «ألم نصل بعد؟» عَبَر السائق بوابة حديدية عالية نحو ساحة مرصوفة بالحجارة.

أجابها والدها: «أجل يا سارا. ها نحن قد وصلنا أخيرًا» ومع أنه حاول أن يخفي شجنه، فقد أدركت سارا أنه يتمنى لو أنهما لم يصلا.

كان والدها يعِدُّها منذ زمن طويل لهذا المكان؛ وهو المدرسة الداخلية التي ستكون مأواها الجديد. ولأن المناخ في الهند كان يمثل خطرًا على صحة الأطفال — فإما حر لافح أو برد ورطوبة يصاحبان الرياح الموسمية، كانوا يرسلون الأطفال عادةً إلى إنجلترا. رأت

سارا أطفالًا آخرين وهم يغادرون، وأحيانًا ما كان يغمرها الحماس بشأن الرحيل في مثل هذه المغامرة، لكنها كانت تشعر بالحزن والفزع عندما تفكر في الابتعاد عن والدها.

دأب والدها على أن يقول: «سيكون هذا لفترة وجيزة فحسب»، وإن الجميع سوف يحسنون معاملتها هناك، وإنه سوف يبعث لها بفيض من الكتب التي ستنهل منها، وإنها ستنضج في لمح البصر وتصبح ذكية ذكاءً يؤهلها للعودة إلى الهند للاعتناء به.

راقت هذه الفكرة لسارا؛ فمنذ أن فارقت والدتها الحياة عند ولادتها، تُركا هما الاثنان وحدهما ليعتني كل منهما بالآخر. ومن أجل هذا السبب وحده، قررت سارا الرحيل.

مازحته سارا: «حسنًا، إذا حُزت الكثير من الكتب، أظن أنني سأكون على ما يرام.»

ضحك والدها، ثم قبّلها. ومع ذلك لم يكن موقنًا أنه سيكون على ما يرام بدون رفيقته الصغيرة سارا المفعمة بالحيوية والنشاط، لكنه رأى أنه لا بد أن يخفي ذلك عنها من أجل مصلحتها.

أنزلهما السائق أمام بناية ضخمة من القرميد بدا عليها القِدَم والمغالاة في الزخرفة، ولكنها في الوقت نفسه جامدة وباردة. وكان على الباب الأمامي لوحة نحاسية محفور عليها:

الآنسة مِنشن

مدرسة الصفوة الداخلية للفتيات

فتحا الباب الثقيل ثم دخلا.

وكان أول انطباع كوَّنته سارا عن الآنسة منشن لدى دخولها الحجرة أنها هي الأخرى عتيقة مغالية في زينتها وأيضًا جامدة وباردة إلى حدٍّ ما.

ابتسمت الآنسة منشن ابتسامة مصطنعة ومريبة.

قالت على سبيل المداهنة: «شرف عظيم لي أن أتولى رعاية مثل هذه الطفلة «الذكيَّة الجميلة» يا كابتن كرو.»

فكَّرت سارا في الكلمات التي قالتها الآنسة منشن. ظنَّت سارا أنها ذكيَّة مقارنة بسنها — ولطالما سمعت الناس يقولون هذا لوالدها — فكانت الآنسة منشن على صواب في هذا الأمر. بيد أن سارا كانت تظن أنها ليست جميلة على الإطلاق، وقد جانبها الصواب في هذا الظن. قالت سارا في نفسها: «أنا أقبح فتاة على وجه البسيطة، وأشدُّهن نحافة. إن الآنسة منشن مرائية كبيرة.»

وستعلم في وقت لاحق أن الآنسة منشن تقول نفس الكلمات لكل والد يحضر طفلته إلى مدرستها.

أنصتت سارا فيما كان والدها والآنسة منشن يتحدثان. وقد اتفقا على أن تحصل سارا على أي شيء تطلبه، ولسوف يتولى مدير أعمال كابتن كرو من شركة «بارو آند سكيبورث» دفع كافة الفواتير.

وتقرَّر أن تحصل سارا في المدرسة على غرفة نوم جميلة، وغرفة جلوس خاصة بها، ولعب، وحلوى، بالإضافة إلى عربة يجرها فرس صغير. ولسوف تحل محل مربيتها الهندية خادمة فرنسية تُدعى مارييت. ذكر كابتن كرو أن أي فتاة أخرى غير ابنته كانت ستفسد أخلاقها من مثل هذا التدليل الزائد، ولكن هذا لا ينطبق على ابنته سارا.

أيضًا ستصطحب سارا دمية مفضلة أطلقت عليها اسم «إميلي» لتكون صديقةً لها في غياب والدها. وكانت إيميلي إحدى الهدايا التي اشتراها كابتن كرو وسارا عندما تسوقا اليوم السابق. واشترى لها أيضًا فساتين، وقبعات مزينة بالريش والفرو، وقفازات صغيرة، وأوشحة، وعدة أزواج من الجوارب الحريرية. وكانت البائعات يتهامسن فيما بينهن أنه لا بد أن تكون سارا ابنة أحد الأمراء الهنديين.

لكن من بين كل هذه الأشياء كانت إيميلي الهدية المحببة إلى نفس سارا؛ إذ كادت الدمية تبدو بعينيها الزرقاوين البراقتين وشعرها اللامع وملابسها المتناسقة التي اختاراها معًا، إنسانًا، وكأنها الأخت الصغيرة لسارا. والأروع من هذا وذاك، بدت هذه الدمية وكأنها تنتبه وتنصت بحق متى تكلمت سارا؛ الأمر الذي لم يكن معهودًا مع الدمى. فبعد أن رأت سارا مئات الدمى في ذلك اليوم، انجذبت إلى إيميلي في اللحظة التي وقعت عليها عيناها في واجهة المتجر الزجاجية، وكأنها التقت بصديق قديم.

أخذ كابتن كرو سارا إلى الآنسة منشن في المساء الذي سبق اليوم المزمع أن يعود فيه إلى الهند كي تقضي ليلتها الأولى بمفردها. وفي وداع كل منهما الآخر، جلست سارا على حجِر أبيها وحملقت فيه، وبدت وكأنها تخشى أن تطرف بعينيها فتفقد رؤيته لحظة.

سألها: «أتحاولين أن تحفظي شكلي عن ظهر قلب؟»

أجابته: «لا، أنا بالفعل أحفظك عن ظهر قلب، فأنت تقبع بين ثنايا قلبي.» وعندئذ فقط أغمضت عينيها، ثم عانقته وكأنها لن تتركه أبدًا.

بعدما غادر والدها، اتجهت سارا إلى غرفتها، وأغلقت بابها. ومضت ساعات دون أن يُسمع دبيب نملة من داخل غرفتها. لم تستطع الآنسة أميليا السمينة غير المهندمة، أخت الآنسة منشن، تكوين انطباع عن سارا.

قالت الآنسة منشن في حدة: «حسنًا، هي على الأقل لا تركل الأرض ولا تصرخ مثلما يفعل بعضهن.»

وكانت الآنسة أميليا قد أفرغت أمتعة سارا في وقت مبكر، لكنها لم تساعدها في تكوين رأي عن سارا أيضًا. ومع أن الآنسة أميليا كانت أطيب قلبًا من أختها، أحيانًا ما كان يصعب تمييز ذلك، لأنها كانت تخشى عصيان الآنسة منشن.

قالت الآنسة منشن: «يا لهما من تافهين، لقد دُلِّلت هذه الفتاة وكأنها أميرة صغيرة!»

أومأت الآنسة أميليا بالإيجاب تصديقًا على كلامها.

أضافت الآنسة منشن: «ومع ذلك أنا موقنة بشدة من أن سارا ستشرِّفنا عندما تتصدر صفوف الفتيات إلى الكنيسة يوم الأحد.» وكانت الآنسة منشن تقلق بشدة على صورتها في أعين جميع من حولها. وكانت ترجو أن تكون سارا تلميذة مثالية في جوانب متعددة.

وفي الدور العلوي وقفت سارا وإيميلي في النافذة، لا تزالان تحدقان في زاوية الشارع الخالي من المارة حيث اختفت عن الأنظار العربة التي تقل كابتن كرو. ولقد لوح لهما من النافذة الخلفية وكأنه لا يتحمل أن يقول كلمة الوداع.

ولم تكن سارا تعرف هل بمقدورها هي أيضًا أن تتحمل هذا؟

في الصباح التالي، فيما كانت سارا ترتدي ملابسها استعدادًا ليومها الأول في المدرسة، تنهَّدت، وقالت لدميتها إيميلي: «أوه يا إيميلي، ليتك تستطيعين أن تأتي معي إلى الفصل.»

نظرت مارييت، التي كانت تساعدها في الاستعداد للذهاب إلى المدرسة، إليها وكأنها فقدت صوابها لأنها تتحدث إلى دميتها.

سألتها سارا بطلاقتها المعهودة في اللغة الفرنسية وهي تهز منكبيها في استنكار: «إلام تحدقين؟ لتعلمي أن الدمى تحيا في الخفاء، فبمقدورها أن تسير وتتحدث.» توقفت سارا ثم استأنفت حديثها قائلة: «ولكنها لا تفعل هذا أمام أحد.»

سألتها مارييت بالفرنسية أيضًا: «لماذا؟»

أجابتها سارا: «حسنًا، لو علم الناس ما تستطيع أن تفعله الدمى، لحملوها على أداء مهامهم!»

قالت مارييت: «أعرف أنني كنت سأفعل ذلك.» ثم فكرت في نفسها ما أحلى خفة دم سارا. دأبت على قول «من فضلك» و«أشكرك»، فبدت وكأنها أميرة صغيرة حقًّا.

عندما دخلت سارا إلى الفصل، التفت الجميع يحدقون فيها، وكانت لافينيا هيربرت، البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا، تحملق فيها بشدة. أما لوتي ليج، التي لا تزال في الرابعة من عمرها فحسب، فقد احولَّت عيناها وهي تنظر إليها.

همست لافينيا إلى صديقتها جيسي: «يا إلهي! انظري إلى ما ترتديه الفتاة الجديدة. ما كل هذه الزينة!»

همست جيسي: «إنها ترتدي جوارب حريرية جميلة! انظري إلى قدميها الصغيرتين!»

تذمَّرت لافينيا، وقالت: «اعلمي أنه حتى الأقدام الكبيرة تبدو صغيرة لدى ارتداء الجوارب الحريرية! لا أظنها جميلة على الإطلاق، بل تبدو غاية في الغرابة.»

أومأت جيسي مصدقة على كلام لافينيا، إذ كانت تخشاها. لكن عندما أدارت لافينيا رأسها، اختلست جيسي نظرة أخرى لسارا. لم تكن جيسي واثقة من أن سارا جميلة، لكن كان ثمة شيء في سارا جعلها ترغب في أن تنظر إليها مرة أخرى؛ ربما قوامها الطويل الممشوق، أو شعرها المجعد الحالك السواد، أو عيناها الغريبتان ذواتا اللون الأخضر الضارب إلى الرمادي اللتان تشعان حكمة غريبة على طفلة في السابعة من عمرها.

طرقت الآنسة منشن على مكتبها كي يلتزم الجميع الصمت.

رفعت الآنسة منشن صوتها: «أيتها الفتيات، قفن من فضلكن.» وقفت الفتيات في أماكنهن فاستطردت: «أقدم لكن الآنسة كرو، الطالبة الجديدة، التي قطعت كل هذا الطريق من الهند إلينا.»

انحنت الفتيات احترامًا، فانحنت سارا بالمثل.

قالت الآنسة منشن: «دعونا نبدأ.» ثم وجهت كلامها إلى سارا: «أنا على يقين من أن والدكِ استأجر خادمة فرنسية من أجلك؛ لأنه أرداكِ أن تتعلمي الفرنسية.»

أجابت سارا: «آنسة منشن، مع كل احترامي لرأيك، أظن أنه استأجرها لأنه ظن أني قد أحبُّها!»

تحولت ابتسامة الآنسة منشن المصطنعة إلى نظرة عبوس.

صاحت الآنسة منشن: «يا لكِ من فتاة وقحة مدللة!» لكنها سرعان ما غيرت نبرة صوتها، فليس من الجيد أن تشتكي سارا إلى والدها الثري، لذا تداركت خطأها، وقالت: «أقصد أنك لا تفعلين كل شيء في هذه الحياة لأنك تحبِّينه.»

لم تعرف سارا ماذا تفعل، فهي تعرف أنها كانت تتحدث الفرنسية طيلة عمرها؛ فوالدتها فرنسية، وكان والدها يتحدث إليها بالفرنسية منذ نعومة أظافرها. وفي صباح

نفس اليوم عندما كانت تخبر ماربيت عن الحياة الخفية التي تحياها دميتها إيميلي، كانت تتحدث إليها بالفرنسية وتفكر بها أيضًا.

لكنها شعرت بشيء من الخوف من الآنسة منشن، شأنها شأن سائر الفتيات.

قالت سارا في محاولة أن تفسر موقفها: «أنا ... أنا لم أتعلم الفرنسية في حياتي أبدًا، لكن ...»

صرخت الآنسة منشن مرة أخرى رغمًا عنها: «لكن لا شيء! اعتبارًا من اليوم ستبدئين في تلقي الدروس الفرنسية الخاصة بالسنة الأولى. بعد قليل سيحضر معلم الفرنسية، السيد دوفارج. والآن، اجلسي!»

بعد انتهاء الحصة الأولى، اصطحب السيد دوفارج سارا إلى حجرة بعيدة عن قاعة الدراسة الرئيسية كي تتلقى درسًا خصوصيًّا في الفرنسية. كان رجلًا لطيفًا ذا شارب فرنسي ملفوف. بدأ يعلمها بالتدريج وببساطة المقابل الفرنسي لكلمتي «كلب» و«قطة»، وبعدها أخذ يعلمها كيف تنطق كلمتي «ملعقة» و«شوكة».

فكَّرت سارا في نفسها: «لا بد أن أحاول مرة أخرى، لعلَّه يفهمني.»

وبالفعل فعلت هذا، ورفعت عينيها ونظرت إلى وجه السيد دوفارج العطوف، وبلكنة فرنسية رقيقة شرحت له الأمر برمته.

ابتسم السيد دوفارج ابتسامة عريضة للغاية حتى إن طرفي شاربه ارتفعا إلى أعلى.

وبعدها قصد الآنسة منشن، وقال لها: «سيدتي، الفتاة ليست في حاجة إلى أن تتعلم الفرنسية، إنها فرنسية!»

كانت بقية التلميذات ينصتن، فعلت ضحكات بعضهن لدى سماعهن هذا.

قالت الآنسة منشن وهي تنظر إلى سارا شزرًا: «كان يجدر بها أن تخبرني بهذا بدلًا من أن تجعلني أبدو كالحمقاء!» وكانت هذه هي بداية شعور الآنسة منشن بعدم الارتياح تجاه سارا. وبطريقة ما بدا أن الفتاة الصغيرة قد أظهرت الآنسة منشن على حقيقتها!

الفصل الثاني

تكوين صداقات جديدة

لم تضحك البدينة إرمنجارد سان جون عندما عرَّضت سارا — بطلاقتها في الفرنسية — الآنسة منشن للإحراج عن غير قصد. لم تر إرمنجارد أن هناك ما يدعو للضحك إذا ما قورنت حماقتها بحماقة تلك الفتاة الجديدة؛ أو إذا ما قورنت بأي شخص آخر مثلما اعتاد والدها أن يقول دائمًا. كان والدها باحثًا، ويتوقع من ابنته أن تقرأ كل الكتب التي يرسلها إليها وتفهمها. لكن هذا أمر مستحيل، لأن إرمنجارد لم يكن بمقدورها أن تسترجع ما قرأته لتَوِّها وكانت أبلد تلميذة في المدرسة. وكانت تدرس الفرنسية على مدار سنوات دون أن تحقق أي نجاح يُذكر، ونطقها الفرنسية مريع للغاية، فقد كانت «حمقاء!»

كانت إرمنجارد غارقة في التفكير حتى إنها لم تلحظ أنها تمضغ ضفائرها. فكما يقول والدها، تجدها دائمًا تمضغ شيئًا ما. ومن سوء حظها أن الآنسة منشن لاحظت هذا.

صاحت الآنسة منشن: «آنسة إرمنجارد، كفاكِ مضغًا لشعرك!»

فزعت الفتاة لدى سماعها ذلك وتوردت وجنتاها خجلًا. وقد لاحظت أن سارا كانت تشاهدها، مما ضاعف إحساسها بالخجل، فقالت في نفسها: «والآن ستظن الوافدة الجديدة أيضًا أنني حمقاء.»

لعل هذا لن يحدث. فبعد انتهاء الحصص الدراسية، اقتربت سارا منها.

قالت سارا في عذوبة: «أحب اسمك.» ثم أخذت تنطقه ببطء: «إرمنجارد ... يبدو وكأنه اسم روائي.»

سألتها إرمنجارد: «أترين ذلك بالفعل؟» وحقًّا، عندما نطقت سارا اسمها بدا وكأنه اسم ملَكِي.

وفجأة قالت سارا: «أتحبين أن تأتي معي وتلتقين بإيميلي؟»

فسألتها إرمنجارد: «ومن تكون إيميلي؟»

مدت سارا يدها وقالت: «تعالي معي إلى غرفتي وانظري بنفسك.»

وفيما كانتا ترتقيان السلم متجهتين إلى غرفة سارا، سألت إرمنجارد: «أحقًّا تملكين غرفة جلوس خاصة بكِ وحدكِ؟»

– «أجل، لقد حصل لي أبي على واحدة، فعندما أنسج القصص وأقصُّها على إيميلي، لا أحب أن يسمعني أحد غيرها.»

قالت إرمنجارد في انبهار: «أتتحدثين الفرنسية وتؤلفين قصصًا من نسج خيالك أيضًا؟»

– «وما الغريب في ذلك، بمقدور أي شخص أن يؤلف قصصًا من نسج خياله، ويمكنكِ أنتِ أيضًا.»

لم تصدقها إرمنجارد، لكن لم يكن هناك وقت للاعتراض، فعندما بلغتا باب غرفتها المغلق، وضعت سارا إصبعها على فمها كي تحثها على الصمت.

همست سارا في غموض: «صه، دعينا نحاول ضبطها!»

لم تكن إرمنجارد تعرف ما الذي تتحدث عنه سارا، لكنه بدا أمرًا في غاية الإثارة. دفعت سارا الباب بقوة على حين غرة، فحملقت إرمنجارد في الغرفة، لكنها لم تر سوى دمية جميلة متكئة على مقعد بجانب المدفأة.

قالت سارا وهي تضحك: «يا لها من ماكرة. لقد عادت إلى مقعدها قبل أن نضبطها وهي تتحرك. دائمًا ما يفعلون ذلك!»

لم يبد أن إرمنجارد قد فهمت شيئًا، لذا أطلعتها سارا على الحياة التي تحياها الدمى في الخفاء.

في تلك اللحظة لم تبد إرمنجارد متحيرة فحسب وإنما خائفة أيضًا؛ إذ أخذت تتساءل: تُرى ما الذي يحيا في الخفاء أيضًا؟ لعلَّ قطع الأثاث؟ وأخذت تحملق في مقعدها في شك وريبة.

قالت سارا: «لا تقلقي. هذا مجرد خيال. ألم يسبق لك أن تخيلت حدوث بعض الأشياء؟»

أجابت إرمنجارد: «كلا.»

قالت سارا: «لا تقلقي. هذا أمر سهل للغاية، وسأعلّمك إياه.»

وعلى مدار الساعة التالية جلست إرمنجارد تحتضن ركبتيها في سرور فيما تعلِّمها سارا أساسيات التخيل، من سرد قصص واختلاق أشياء غريبة. وبالطبع لم تستطع أن تعلمها الفرنسية في ساعة واحدة، لكنها أخبرتها المزيد عن حياة الدمى الخفية، وعن رحلتها من الهند. وأخيرًا أخبرتها عن والدها.

وعندئذ توقفت سارا عن الحديث، وتغضَّن وجهها، وبدت وكأنما قد تبكي.

سألتها إرمنجارد: «هل أنتِ بخير؟»

فردت سارا بسؤال آخر: «هل تحبين والدكِ؟»

أجابت إرمنجارد: «قلَّما أراه، لكن لا بد أن أحبه، أليس كذلك؟»

اندفعت سارا قائلة: «أنا أحب والدي أكثر من أي شيء في العالم. وأفتقده كثيرًا.» ثم رفعت رأسها، وتنهدت بعمق، ثم أضافت: «لكنني قطعت له وعدًا بأن أكون جنديًّا قويًّا، ولسوف أكون كذلك بكل تأكيد. سوف أكون كذلك!»

وعندئذ تبادرت فكرة إلى ذهن إرمنجارد التي ألهمها حديث سارا، فقالت: «لافيينا وجيسي صديقتان حميمتان، أتظنين أنه بمقدورنا أن نصيرا نحن أيضًا صديقتين حميمتين؟ حتى ولو تظاهرنا بذلك؟»

قالت سارا: «يا لها من فكرة رائعة! ولسنا في حاجة إلى التظاهر!»

في اليوم التالي قالت إرمنجارد لسارا في الردهة: «لافينيا تكرهك.» ونظرت خلفها خشية أن تسمعها لافينيا، ثم أضافت: «قبل مجيئك إلى هنا، كانت هي أذكى فتيات المدرسة وأكثرهن أناقة. كانت لافينيا «مهمة».»

قالت سارا: «لكن ليس هناك ما يدعو لافينيا لأن تكرهني. إنها تغار مني، لكن يمكنها أن تظل مهمة؛ أي شخص يمكنه ذلك.» اندهشت إرمنجارد لدى سماعها الكلمات الأخيرة وأخذت تفكر في نفسها: «حتى أنا؟»

الحقيقة أن لافينيا كانت فتاة حقودة اعتادت أن تفرض نفوذها وسيطرتها على بقية الأطفال من حولها. وقبل أن تصل سارا، كانت لافينيا تجلس إلى جانب الآنسة منشن أثناء تناول الوجبات، وتتقدم الصفوف أثناء الزيارات الخارجية التي تنظمها المدرسة. لكنها لم تعد كذلك الآن.

وإحقاقًا للحق، كانت سارا تظن أن الأشياء تحدث للناس بمحض المصادفة، ففكرت في نفسها: «ليس ذنبي أنني أحببت المدرسة دائمًا، وأنني لدي أبٌ يحبني ويهبني أشياء جميلة.»

قالت سارا في صرامة: «مهما كان الأمر، أنا لا أكره لافينيا.»

ردت إرمنجارد: «أنتِ تتمتعين بقلب لا يستطيع أن يكره أي شخص.» غرقت سارا في التفكير لحظة.

ثم أفصحت عما يدور بخلدها: «أحاول أن أكون طيبة. لكن كيف لي أن أعرف إذا كنت طيبة بالفعل؟ ففوق كل شيء، يسهل على الإنسان أن يكون طيبًا عندما ينعم برغد العيش، لكن إذا كنت أعاني من ضنك العيش واجتزت الكثير من البلايا، فربما ما كنت لأصبح طيبة، لعلي كنت سأصبح مؤذية!»

قطع حديث سارا وإرمنجارد صرخة قوية وحادة، فرفعتا أعينهما لتريا لافينيا تقف فوق لوتي، وعلى وجنة لوتي علامة حمراء حديثة في حجم يد لافينيا اليمنى. دمدمت إرمنجارد قائلة: «هذا بمناسبة التحدث عن الشخصيات المؤذية ...»

انتحبت لوتي: «لقد صفعتني!»

هرعت سارا إليها فحالت بينها وبين لافينيا، ثم صرخت في وجه لافينيا: «ماذا تفعلين؟ لوتي في الرابعة من عمرها، وأنت في الثالثة عشرة من عمرك تقريبًا، أي أنكِ تكبرينها بتسع سنوات!»

أجابت لافينيا: «حقًّا! تجيدين الجمع!» وكانت تتمنى أن تصفع سارا أيضًا، لكنها نظرت إليها بازدراء، واندفعت خارج الحجرة.

وحتى مع خروج لافينيا، لم تتوقف لوتي عن البكاء. كانت لوتي هي الطفلة الصغرى، ليس في المدرسة وحدها، وإنما في عائلتها أيضًا، وقد دُلِّلت كثيرًا طوال حياتها. وعلى خلاف سارا فسدت لوتي من التدليل المفرط؛ إذ ماتت والدتها ومنحها من حولها الانطباع بأنها بمقدورها أن تستغل هذه الحقيقة في أن تحظى باهتمام خاص. وهي لا تنطق أبدًا بعبارات مثل «من فضلك» أو «أشكرك.» ومتى احتاجت إلى شيء ما، تجدها تركل الأرض بقدميها وتصرخ. وكانت لوتي الصغيرة تنعم برئتين قويتين؛ فمتى صرخت، كاد يُسمع صوتها في كل أرجاء لندن.

لا شك أن صرخاتها بلغت آذان الآنسة منشن والآنسة أميليا، فجاءتا مهرولتين.

سألت الآنسة منشن: «ما الذي يحدث هنا؟ لوتي، لماذا تبكين؟»

ردت إرمنجارد: «لقد صفعتها لافينيا.»

قالت الآنسة منشن: «قطعًا هذا غير صحيح. لافينيا آنسة مهذبة.»

صرخت لوتي وهي لا تزال تركل الأرض بقدميها: «أوووووووو! ليس لي ...»

قالت الآنسة أميليا: «يا لها من طفلة مسكينة. ماذا تحتاج؟»

فأجابت الآنسة منشن: «تحتاج أن تُبرَح ضربًا. هذا كل ما في الأمر!»

عندئذٍ تعالت صرخات لوتي أكثر.

فقالت سارا: «آنسة منشن، اسمحي لي بأن أحاول أن أتحدث إليها لعلَّها تهدأ.»

أومأت الآنسة منشن على نحو مقتضب.

جلست سارا على الأرض إلى جانب لوتي. وبدلًا من أن تتحدث سارا، نظرت إليها دون أن تنبس ببنت شفة. وقد تحير الجميع من تصرفات سارا الغريبة.

بل إن لوتي نفسها تحيرت أيضًا؛ فعادةً عندما تبكي يُحدث الجميع جلبة من حولها، ويتوسلون إليها كي تتوقف عن البكاء، ويعدونها بتنفيذ أي شيء تطلبه شريطة أن تتوقف عن البكاء فحسب. بيد أن تصرف سارا كان غريبًا حتى إن لوتي نسيت صراخها.

قالت سارا عندما صمتت لوتي أخيرًا: «مرحبًا.» فردت لوتي لاهثة: «أهلًا.»

سألتها سارا: «لم تبكين؟»

همّت لوتي بالرد عليها، فقالت: «ليس لي ...» ثم انقطعت عن الكلام.

شجَّعتها سارا: «تكلَّمي.»

أخيرًا اندفعت لوتي قائلة: «ليس لي أم!» ومع أن شفتها السفلى كانت لا تزال ترتجف، حدثت المعجزة وهدأت لوتي.

سألت سارا الآنسة منشن: «أحقًّا هذا؟» ربما لا تكون لوتي سعيدة الحظ.

ردت الآنسة منشن في وضوح: «أجل، ماتت والدة لوتي عندما كانت صغيرة.»

وعندها احمرَّ وجه لوتي، وبدا أنها تستعد لأن تركل الأرض وتصرخ من جديد، لكن سارا تفوهت قبل أن تبدأ نوبة الهياج، وقالت: «وأنا أيضًا.»

طرفت لوتي بعينيها من المفاجأة الثانية. لم تشأ لوتي أن تتوقف عن البكاء والعويل، ولكنها متحيرة؛ لا فائدة منه الآن. سألتها لوتي: «أين هي؟»

ردت سارا: «في السماء. هكذا تكون معظم الوقت ...»

اتسعت عينا لوتي، وسألتها: «وأين تكون بقية الوقت؟»

أخذت سارا تطلعها على أفكارها عن الملائكة، وتشرح لها أنهم يحيون في الخفاء، شأنهم شأن الدمى، ويعودون إلى الأرض من حين إلى آخر للاعتناء بأحبائهم.

نهضت لوتي وأخذت تتلفت حولها؛ ففكرة أن والدتها ربما تكون في مكان ما في الجوار تراقبها جعلتها ترغب في أن تتصرف كفتاة يمكنها التواصل مع الملائكة.

طلبت لوتي: «أخبريني بالمزيد!» فقد كانت قصص سارا حلوة على مسامعها مثل الحلوى.

بدأت سارا تحكي وهي متلألئة العينين متوردة الخدين. واجتمع حولها الكثير من الفتيات الأخريات، فسحرتهن أيضًا قصص سارا؛ فطريقة سارا في إلقاء القصص جعلتها تبدو وكأنها قصص حقيقية.

كان صوت سارا وهي تصف السماء عذبًا وجذابًا: «ثمة حقول من الأزهار يركض فيها الصغار ويجمعون باقات كثيرة منها، ويضحكون، ويصنعون عقودًا طويلة من أزهار الزنبق. وثمة جنيَّات في كل مكان لا يفعلن شيئًا سوى أن يسبحن في كل الأرجاء.»

قالت لوتي: «أريد أن أسبح مع الجنيات، لأنه ليس لي أمٌّ هنا على الأرض.»

كانت سارا تعرف الرد المناسب، فقالت: «سأكون أنا أمك. سنتخيل أنكِ طفلتي الصغيرة بالتبنِّي، وستكون إيميلي أختك.»

عندما ابتسمت لوتي ظهر في خدها غمَّازة كبيرة زادتها جمالًا.

سألت لوتي المبتسمة: «حقًّا؟ أستكون أختي؟»

أجابت سارا وهي تثب على قدميها: «أجل، لنذهب ونخبرها بهذا.»

وافقت لوتي وسارت في ابتهاج شديد وراء سارا إلى خارج الغرفة، فمن الآن فصاعدًا لديها الكثير لتستمتع به.

كثيرًا ما كانت سارا تلمح فتاة تكبرها ببضع سنوات تجلس في الظلام بالقرب من المدخل الخلفي للمدرسة أو في أحد ممراتها. كانت الفتاة تحمل طرودًا ثقيلة في معاناة شديدة، وعرفت سارا أنها ليست طالبة بالمدرسة. ولأنها فتاة فضولية، صمَّمت على أن تعرف المزيد.

وبدا أن هذه الطفلة يساورها نفس الفضول لمعرفة المزيد عن سارا؛ فدائمًا كانت تختلس النظر إليها بعينيها الواسعتين اللتين يحددهما وجه حلو ملطخ بالفحم. وكانت الفتاة في الرابعة عشرة من عمرها، لكنها بدت في الثانية عشرة نتيجة للحياة القاسية التي تتكبدها.

حدث ذات يوم أن اصطدمت سارا بالفتاة أثناء سيرها في الممر، فابتسمت لها.

وعادة ما يرد الناس ابتسامة سارا بابتسامة مثلها، لكن هذه الفتاة ارتاعت وكأنها قد أُخبرت بأنه ليس من شأنها أن تنظر إلى كل الفتيات الراقيات، فما بالك أن تبتسم لهن.

قالت سارا في رقة: «لا بأس. ما اسمك؟» لكن الفتاة كانت قد انطلقت بالفعل عائدة نحو الظلام.

وفي ذلك المساء، وفيما كانت سارا جالسة في الردهة تسرد قصة أخرى من قصصها الشهيرة (حول عرائس وعرسان البحر، وبالطبع حول الأميرات أيضًا)، إذ بنفس الفتاة تدخل إلى الردهة، وكانت تبدو هزيلة ومنهكة القوى، وتحمل صندوق فحم ثقيل للغاية.

نزلت الفتاة على ركبتيها كي تكنس الرماد. كنست الفتاة مرة بعد مرة بعد مرة، وفي تلك اللحظة أسرتها قصة سارا حتى إنها توقفت عن الكنس، وبدلًا من إزالة الرماد، جلست مسترخية حالمة في أحد المقاعد حتى إنها فقدت قبضتها على فرشاة المدفأة التي أوشكت أن تسقط من يدها.

وقبل أن تدرك الفتاة هذا، إذ بها تجد نفسها في أغوار البحار بصحبة سارا وسائر الفتيات الأخريات ذوات الشأن، وبصحبة عرائس وعرسان البحر. ولم تحيا قط الفتاة في خلال فترة حياتها القصيرة الشاقة لحظات وسط أزهار البحر والأعشاب التي تتمايل بخفة وكأنها تتراقص على ألحان الموسيقى التي كانت تسمعها في خيالها الآن أيضًا بفضل سارا.

سقطت الفرشاة من يد الفتاة فأصدرت صوت ارتطام مرتفع، فالتفتت إليها كل الفتيات.

كشرت لافينيا عن أنيابها، وظهر جانب شخصيتها الذي يفيض بالحقد والتعالي، وصاحت فيها: «كيف تجرئين على أن تستمعي إلى هذه القصص! أقصد إنها قصص حمقاء ساذجة ... وأنتِ لستِ سوى خادمة!»

تمتمت الفتاة المذعورة بكلمات الاعتذار، والتقطت فرشاتها، وهرولت إلى خارج الغرفة.

ثارت ثائرة سارا على لافينيا، وصاحت فيها: «كيف تجرئين على فعل هذا؟ القصص ملك الجميع وليست حِكرًا على أحد!» استشاطت سارا غضبًا حتى إنها كادت أن تصفع لافينيا، لكنها كانت تعرف أن عليها أن تتصرف كأميرة حقيقية وألا تنحدر بمستواها إلى مستوى لافينيا.

اكتشفت سارا لاحقًا أن اسم الفتاة بيكي، وأنها يتيمة، وتعمل خادمة بالمطبخ الواقع في الطابق السفلي، ومنوط بها مهام النظافة الشاقة التي لا يؤديها أحد سواها. وعادة كانت الفتيات تسمع صوت الآنسة منشن يدوِّي من الدور السفلي وهي تقول:

«بيكي، افعلي هذا.» و«بيكي، افعلي ذاك.» ومع ذلك، لم يكن ذلك ليسترعي انتباه أحد، لأنه بدا أمرًا بعيدًا كل البعد عن عالمهم المليء بالثراء والراحة.

وفي ذلك اليوم أقسمت سارا أن تقيم علاقة صداقة مع بيكي. فعادة كانت سارا تهرع إلى مساعدة المحتاجين دون تفكير، ولم تكن بيكي لتُستثنى منهم.

ومع ذلك في المرات القلائل التي التقتا فيها مصادفة، بدت بيكي مرتبكة. وكانت سارا تدرك أن بيكي ستُعنف أيما تعنيف إذا ضُبطت متلبسة وهي تتحدث إلى التلميذات، لذا التزمت بالابتعاد عنها.

وبعد مضي أسابيع قلائل، حدث موقف سعيد؛ فعندما دخلت سارا غرفة الجلوس الخاصة بها، وجدت بيكي تغط في نوم عميق على الكرسي الهزاز الوثير المصنوع من القطيفة بجانب المدفأة.

وكانت بيكي قد جاءت إلى غرفة سارا كي ترتبها وتضيف المزيد من الفحم إلى مدفأة سارا. وكانت غرفة سارا مميزة عن بقية الغرف؛ فهي غرفة دافئة تعج بالألوان المبهجة، وتزخر بالصور والكتب والبطاطين الناعمة وأشياء غريبة من الهند. وكانت هناك أيضًا سجادة من جلد نمر كان والدها قد اصطاده. وكانت بيكي دائمًا ترجئ تنظيف غرفة سارا إلى النهاية باعتبارها مكافأة لنفسها لإتمامها أعمال النظافة.

لم تتجرأ بيكي من قبل قط على الجلوس على الكرسي الهزاز الخاص بسارا، لكنها قالت في نفسها في هذا اليوم: «سأجلس لأرتاح دقيقة واحدة ...»

لكن الدفء الذي تبعثه المدفأة طواها بسحره، فقالت لنفسها قبلما تغطُّ سريعًا في سبات عميق: «دقيقة واحدة أخرى فقط.»

همست سارا إلى إيميلي: «أوه! يا لها من مسكينة! إنها متعبة للغاية.» وأخذت سارا تفكر في أن المصادفة وحدها هي من جعلتها تحيا حياة كريمة وجعلت بيكي تحيا مثل تلك الحياة الشاقة؛ فما هما إلا فتاتان صغيرتان لا فرق بينهما.

لم تشأ سارا أن توقظ بيكي، لكنها خافت أن تمر بهما الآنسة منشن وتجدها هناك. وبينما كانت سارا تفكر، إذ بجمرة نار ترتطم بحاجز المدفأة محدثة صوتًا قويًّا، ففتحت بيكي عينيها اللتين وقعتا على سارا في الحال فقفزت لتوها من على مقعدها.

فقالت لها في ارتباك: «أنا آسفة يا آنسة!»

قالت سارا: «لا تأسفي. أنا سعيدة لأنكِ هنا.» ثم اقتربت سارا وأمسكت يد بيكي. ومع أن بيكي كانت أكبر، فقد بدت أنها بحاجة إلى الأمومة بقدر حاجة لوتي لها تمامًا.

استمرت بيكي في اعتذارها: «لم أقصد أن أفعل هذا يا آنسة.» اعتادت بيكي تلقي التوبيخ والتعنيف الشديدين حتى إنها لم تلحظ معاملة سارا الطيبة لها فواصلت: «لكن النيران كانت دافئة، والكرسي ناعم للغاية، وأنا كنت متعبة بشدة ...»

حاولت سارا أن تهدئ من روعها: «أعرف ذلك، وأنت تكدين في العمل.» أخيرًا اكتشفت بيكي أنها ليست في ورطة.

فقالت لاهثة: «أحقًّا لستِ غاضبة يا آنسة؟ ولن تبلغي الآنسة منشن؟»

أجابت سارا: «بالطبع لن أطلع أحدًا على الأمر.» وطرأت فكرة أخرى ببال سارا فسألتها: «هل انتهيتِ من إتمام عملكِ؟ ألا يمكنك أن تمضي معي وقتًا أطول؟»

حدقت بيكي في عينيها الواسعتين.

– «هل أبقى يا آنسة؟ أنا؟ هنا؟»

هرعت سارا نحو الباب كي تتحقق من أنه لا يوجد أحد حولهما.

قالت سارا: «الممر هادئ، ولا أحد يعلم أنكِ هنا. إذا كنتِ قد انتهيتِ من إتمام عملك، فهل يمكنك أن تأتي لتقضي معي بعض الوقت؟»

أومأت بيكي بتؤدة. بالتأكيد ظنت بيكي أنها لا تزال تحلم في كرسي سارا الهزاز.

ثم فتحت سارا أحد الأدراج، وأخرجت كعكة شوكولاتة مجمَّدة، ثم قطعت شريحة سميكة من أجل بيكي. ابتسمت سارا في سرور عندما كادت بيكي تلتهم القطعة كلها في قضمة واحدة.

قالت سارا: «بيكي، إذا جئت إلى غرفتي كل ليلة، يمكنني أن أقص على مسامعك جزءًا من قصة عروسة البحر في كل مرة، إلى أن تنتهي القصة.»

تهللت بيكي، وقالت: «سأفعل! وسأحب هذا بشدة حتى إنني لن أعبأ مرة أخرى بثقل صناديق الفحم، أو بكوني جائعة، أو بالمعاملة القاسية التي أتلقاها من الآنسة منشن. أظنني أستطيع أن أتحمل كل شيء إذا وضعت هذا نصب عينيّ!»

وعاشت بيكي الليالي اللاحقة، ليس فقط على الوجبات الخفيفة التي تقدمها لها سارا والقصص التي ترويها على مسامعها؛ وإنما أيضًا على دفئها وحنانها.

الفصل الثالث

صاحبة الجلالة

انقضى عامان دراسيان كاملان. وازدادت سارا قوةً وذكاءً، وكانت تحلم كل ليلة بالعودة إلى الهند للاعتناء بوالدها. وكان كابتن كرو يكتب لها خطابات طويلة مفصلة. وبعث إليها أيضًا بالكتب التي تقرؤها في وقت متأخر من الليل بعدما تخلد الفتيات الأخريات إلى النوم.

وقد مكنتها لغتها الفرنسية الطلقة وقصصها عن الهند من أن تصير الفتاة المثالية لتتباهى بها مدرسة الآنسة منشن الداخلية الراقية. وبدأت بعض الفتيات الأخريات يعاملن سارا وكأنها تنتمي إلى عائلة ملكية بحق، في حين غارت أخريات من الرعاية الخاصة التي تتلقاها ومن مظهرها المترف كما يرونه.

وفي يوم من الأيام، وفيما كانت في الردهة بصحبة زميلاتها في الفصل، تسلمت ربما أكثر خطاباتها تشويقًا على الإطلاق؛ إذ أطلعها كابتن كرو في هذا الخطاب على عمل جديد من المؤكد أنه سيجعلهما أكثر ثراءً من ذي قبل؛ إذا وافق على أن يكون شريكًا في منجم ماس مع أعز صديق له، وهو رجل تعرف عليه عندما كان لا يزال صبيًّا في المدرسة الداخلية.

فكرت إرمنجارد على نحو حالم: «ليتني أنا وسارا نمتلك منجم ماس يومًا ما.»

زفرت لافينيا، وقالت في حقد: «وهل ينقص سارا المزيد من الثراء!»

أقرت جيسي بما في داخلها: «يا له من أمر خيالي.»

وافقتها سارا الرأي. لم تكن سارا تكترث للثراء في حد ذاته. إن كانت تشعر بالإثارة (وهو ما حدث بالفعل)، فذلك لأن فكرة منجم ماس فكرة خيالية في جوهرها، بل وساحرة أيضًا، فهي أشبه بحكايات «ألف ليلة وليلة.»

وما أحلى القصص التي ألهمها بها منجم الماس! فأخذت سارا تروي على مسامع إرمنجارد ولوتي وبيكي والفتيات الأخريات قصصًا مبهجة عن الممرات الموشَّاة بالمجوهرات في باطن الأرض، وعن الرجال الشجعان الذين ينقبون بمعاولهم بحثًا عن الأحجار الكريمة.

أخبرت لافينيا جيسي: «لا أستطيع أن أتحمل هذا. سوف تتمادى في خيلائها الآن.»

هزت جيسي منكبيها دون اكتراث. فقد بدأت تحب سارا وتتمنى ألا يلحق بها أي أذى، وهي بالطبع لن تطلع لافينيا عما يدور بخلدها مطلقًا.

سألت لافينيا جيسي في محاولة لإحداث مشكلة: «أتعلمين أن سارا تدَّعِي في الخفاء أنها أميرة «حقيقية»؟ أجل هذا حقيقي، لقد سمعتها في إحدى الليال تبوح بهذا لإحداهن، قطعًا تلك الحمقاء البليدة إرمنجارد، عندما كنت أمر بغرفتها. أظن أنه ينبغي لنا جميعًا أن نناديها بـ«صاحبة الجلالة».»

قطَّبت جيسي جبينها، إذ لم تشأ أن تناديها بشيء كهذا.

قفزت لافينيا وركضت إلى حيث تجلس سارا وهي تنهي قصتها. وما أشد دهشة سارا عندما أخذت لافينيا تصفق لها.

هلَّلت لافينيا ساخرة وسط تصفيقها: «أوه، يا صاحبة الجلالة، مناجم ماس، يا له من شيء مثير!»

ازدردت سارا ريقها، إذ خجلت بشدة بسبب توهم كونها أميرة (أو «التظاهر» بأنها أميرة كما كانت تطلق عليه)، وها هي ذي لافينيا تسخر منها أمام المدرسة بأكملها.

لقد قررت سار في الخفاء أن تتخيل أنها أميرة حقيقية، ولها رعايا حقيقين (مثل بيكي ولوتي) بحاجة إليها، وكانت تطلق عليهم اسم «العامة»، وأنها سوف تهتم بأشياء أهم من جمالها. وفوق كل شيء، سوف تحاول دائما أن تكون كريمة وعطوف.

شعرت سارا برغبة في صفع لافينيا، لكن الأميرات لا يصفعن الناس كما رأت، حتى الحاقدين منهم أمثال لافينيا. أجبرت سارا نفسها على التكلم بهدوء، بل وعلى نحو ملكي أيضًا.

ردت سارا: «كلامكِ حق، أحيانًا ما أتخيل أنني أميرة، وأحاول أن أتصرف كأميرة. وأنتِ أيضًا قد ترغبين في أن تجربي هذا من وقت لآخر.»

قالت لافينيا في ازدراء: «يراودني سؤال؛ لو كنتِ فقيرة معدمة تقطنين علية، هل كنت ستتخيلين أنكِ أميرة أيضًا؟»

لم تعرف سارا بم تجيبها، لكنها قالت: «بالطبع كنت سأحاول.»

قالت لافينيا: «أف!» ثم اندفعت خارج الغرفة وهي تتأفف وتتبرم.

ومنذ ذلك الحين بدأ كثير من الفتيات الأخريات ينادين سارا عن محبة باسم «الأميرة»، وحتى الآنسة منشن فعلت هذا أيضًا، لكن ليس عن محبة، وإنما ليظن الآباء الذين يزورون المدرسة أن مدرستها تضم فتيات من العائلات المالكة.

ظلت خطابات كابتن كرو تتوالى على سارا، بيد أن سحرها أخذ يخبو شيئًا فشيئًا. قطعًا حاول الكابتن أن يجعل الخطابات تبدو مبهجة وزاخرة بالأخبار السارة؛ فقد أتى على ذكر عيد ميلاد سارا الحادي عشر القادم، ووعدها بإقامة حفل كبير لم تر الفتيات في مدرسة الآنسة منشن مثيلًا له.

لكن سارا بدأت تقرأ الرسالة المختبئة بين السطور؛ اضطرابات في العمل، ومشكلات صحية. وقد بدا أن والدها مهموم وتحدث مرارًا عن مدى افتقاده وحنينه لها، الشيء الذي حرص من قبل على أن يخفيه عنها دائمًا.

وفي يوم عيد ميلادها، جاءت بيكي لتعِدَّ سارا إلى الحفل، وساعدتها مارييت سريعًا في ارتداء ملابسها وزينتها. أمرت الآنسة منشن سارا بأن ترتدي أبهى حُلَلِها؛ فستانًا حريريًّا وردي اللون أُعِدَّ خصوصًا من أجل هذه المناسبة، وأن تجعد شعرها. لم تشأ سارا أن تتحلى بكل هذه البهرجة التي لا داعي لها، لكن الآنسة منشن أصرت كل الإصرار؛ فلأن كابتن كرو سيرد لها ثمن تكلفة الحفل أضعافًا مضاعفة، حرصت على ألا توفر أي نفقات.

قادت بيكي سارا إلى الردهة التي تحولت إلى قاعة الاحتفال. وبدلًا من أن تغادر بيكي القاعة في الحال كما ينبغي لها، لم تستطع أن تمنع نفسها عن المكوث والنظر إلى الزينة ذات الألوان المبهجة، والكعك الشهي، والهدايا.

وما إن لمحتها الآنسة منشن حتى صاحت في غضب: «أيتها الخادمة! اخرجي في الحال!»

توسَّلت إليها سارا: «من فضلك يا آنسة منشن، ألا يمكن أن تمكث بيكي معنا؟ من فضلك أسدي لي معروفًا خاصًّا يوم عيد ميلادي؟ بيكي، قبل كل شيء، فتاة صغيرة أيضًا.»

بدا الامتعاض على الآنسة منشن؛ فلطالما كانت تنظر إلى بيكي على أنها ماكينة أكثر من كونها فتاة صغيرة، لكنها مضطرة أن ترضخ الآن إلى مطلب سارا كيلا تخبر والدها

الثري أن الآنسة منشن رفضت طلبها. وها هي سارا تكَدِّرُها مرة أخرى، لكنها لم تكن تعرف السبب تحديدًا.

قالت الآنسة منشن في عبوس: «حسنًا.» ثم لوَّحت لبيكي بيدها، وقالت لها: «اذهبي وقفي هناك، لكن إياك أن تقتربي من الآنسات.»

أسرعت بيكي في سعادة غامرة نحو الركن إلى حيث أشارت الآنسة منشن.

ولم تكن بيكي وحدها التي تنظر إلى الكعك نظرة متلهفة جائعة، لكن الآنسة منشن لم تسمح لأي فتاة بأن تتناول قضمة واحدة، أو تفتح هدية إلى أن يغنين معًا أغنية عيد الميلاد.

أمرتهم الآنسة منشن قائلة: «سأعد من واحد إلى ثلاثة، وعندئذ نبدأ جميعًا في الغناء.» ثم أخذت تطرق بشوكتها الرنانة كي تقودهم إلى البداية الصحيحة.

وبدءوا جميعًا: «عيد ميلاد سعيد ...»

وفجأة قطع غناءهم اندفاع الآنسة أميليا على نحو أخرق إلى داخل الغرفة.

فصرخت فيها الآنسة منشن: «أميليا!» إذ ستضطرهن إلى بدء الغناء من جديد.

لكن الآنسة أميليا قالت وهي منقطعة الأنفاس: «إني آسفة. لكنها مسألة طارئة، على الأقل كما يقول السيد بارو. إنه يريد التحدث إليكِ في الحال.»

سألتها الآنسة منشن في لهفة: «من؟»

أجابتها الآنسة أميليا لاهثة: «السيد بارو، إنه في انتظارك ليتحدث إليك في مكتبك. يقول إنه مدير أعمال كابتن كرو.»

انتبهت الآنسة منشن كثيرًا لدى سماعها هذا.

وفكرت في نفسها: «حسنًا، إنها مسألة وقت، لقد أنفقت مئات الجنيهات على هذه الأميرة الصغيرة منذ أن وفدت إلى هنا، وأنفقت على هذا الحفل السخيف وحده مائة جنيه على الأقل، وقد مرت شهور الآن دون أن أسترد بنسًا واحدًا.»

ابتسمت الآنسة منشن ابتسامتها المريبة، ثم أخبرت الفتيات أنها ستعود في الحال. وقد حملتها فكرة أنها ستتسلم شيكًا بمبلغ كبير على أن تغدق عليهن بكرمها المفرط فأخبرت الفتيات أن بمقدورهن البدء في تناول الحلوى، وسيغنين لسارا عندما تعود.

الفصل الرابع

دوام الحال من المحال

هتفت الآنسة منشن وهي تندفع بلطف إلى مكتبها: «سيد بارو، تسعدني رؤيتك مرة أخرى!»

لكن عندما نهض السيد بارو ليحييها، لم تبد عليه أمارات السعادة.

قال السيد بارو في نبرة جادَّة: «آنسة منشن، ربما يجدر بكِ أن تجلسي.»

اكتست ملامح الآنسة منشن بالجدية، وسألته: «هل وقع مكروه؟»

قال السيد بارو وهو يجلس: «هذا أقل ما يمكن أن يُقال.»

وعندئذ أعلن السيد بارو عما يحمله من أنباء؛ كيف انهار مشروع مناجم الماس، وعن الراحل كابتن كرو.

قالت الآنسة منشن لاهثة: «أستميحك عذرًا، «الراحل» كابتن كرو؟»

أكد السيد بارو كلامه قائلًا: «لقد مات يا سيدتي، مات إثر إصابته بحُمَّى الأدغال. لكن هذا ليس كل شيء.»

سألته الآنسة منشن: «وهل هناك المزيد؟»

– «مات كابتن كرو دون أن يترك وراءه مليمًا واحدًا. مات فاقدًا صوابه تمامًا، وهو يهذي بالحديث عن ابنته الصغيرة.»

كادت أنفاس الآنسة منشن تنقطع، ليس على سبيل الشفقة، وإنما من شدة الغضب؛ لقد شعرت كأنما تعرضت للخديعة وجُرِّدت من حقوقها. خدعها الراحل كابتن كرو، والسيد بارو وحتى سارا نفسها.

تحدثت الآنسة منشن بتؤدة: «هل أنت تقول لي الآن … إنه لم يترك أي شيء لطفلته؟ ولم يترك شيئًا لي؟ هناك حفل كبير مُقام الآن من أجل سارا على نفقتي الخاصة، ولن أرى بنسًا واحدًا من المال الذي أنفقته عليها؟»

رد السيد بارو دون أن يختار كلماته: «أجل، للأسف باتت الفتاة شحَّاذة. لكن قبل أن تفكري في طردها إلى الشارع، فكري في صورة مدرستك.» ثم أضاف بجفاء: «واعلمي أن شركة «بارو آند سكيبورث» غير مسئولة عنها، بل أنتِ المسئولة.»

لم تصدق الآنسة منشن الكلمات التي وقعت على أذنيها لتوها، لكن ذهنها كان يعمل بأقصى سرعة بالفعل؛ فهي لا تزيد عن كونها سيدة أعمال ماكرة وها قد عرفت لتوها ما يرمي إليه السيد بارو. وبعد طول صمت تكلمت.

قالت الآنسة منشن مؤيدة كلامه: «أجل، من الأفضل أن أبقيها، وأن أستفيد من وجودها.» ثم ضيَّقت عينيها في مكر، واستأنفت كلامها: «أؤكد لك يا سيدي أنني سأستفيد منها أقصى استفادة ممكنة!»

قطع أصوات الغناء حوارهما. إنه صوت التلميذات كما توقعت الآنسة منشن بذهنها المشوش. لقد بدأن الغناء دونها، فأسرعت عائدة نحو الغرفة.

صرخت في اهتياج: «اصمتن في الحال!» ثم فتحت الباب، واندفعت إلى داخل الغرفة، وقالت: «ليصمت الجميع!»

توقفت الفتيات الخائفات في منتصف الأغنية.

قالت الآنسة منشن: «سارا كرو! تعالي إلى هنا في الحال!»

تفرق شمل الفتيات المحتشدات، وسارت سارا في هدوء نحو مقدمة الحجرة.

ردت سارا: «نعم يا آنسة منشن.»

سألتها الآنسة منشن بنبرة ساخرة: «هل لديكِ ثوب أسود في خزانة ملابسك الملكية الضخمة؟»

قالت لافينيا في همس: «إني موقنة من أن سارا لديها أثواب من كل لون.»

كررت الآنسة أميليا الكلمات قائلة: «ثوب أسود؟ ماذا تقصدين؟»

أجابت سارا في خوف: «لدي ثوب أسود من القطيفة قديم، لكنني كبرت، فبات قصيرًا للغاية عليّ.»

قالت الآنسة منشن: «هذا مؤسف للغاية. اذهبي وبدِّلي هذا الشيء الوردي السخيف بذلك الأسود. لقد ولى عهد الترف والبهرجة!»

وفي صدمتهن، لم تقو أي من الفتيات الأخريات على أن تنبس ببنت شفة.

صرخت الآنسة أميليا: «يا أختي، ما الذي حدث؟» لم تنتقِ الآنسة منشن كلماتها. قالت: «مات كابتن كرو. مات معدمًا تاركًا هذه الأميرة الصغيرة المدللة طوع بناني.»

شهقت الفتيات الأخريات، وارتمت الآنسة أميليا على أقرب مقعد، وأخذت بيكي التي كانت لا تزال تقف في أحد الأركان، تصرخ. لكن حال سارا كان مختلف تمامًا؛ إذ لم يصدر عنها أي ردود أفعال هوجاء على الإطلاق، ومع أن عينيها اتسعتا بشدة، وشحب وجهها، فقد تسمرت في مكانها كالصنم، ونظرت إلى الآنسة منشن دون أن تنبس ببنت شفة قبل أن تستدير وتسير في صمت إلى خارج الغرفة.

ثارت ثائرة الآنسة منشن عندما نظرت حولها ورأت ما تبقى من الحفل المترف الذي أنفقت عليه ببذخ.

قالت: «أيتها الفتيات! اتركن الكعك، واذهبن إلى غرفكن في الحال!»

ثم التفتت إلى بيكي التي كانت الدموع تنهمر على وجهها بغزارة.

– «وأنتِ، كفاك نحيبًا، ونظفي هذه الفوضى. لقد انتهى هذا الحفل!»

وفي الدور العلوي، كانت مارييت المرتجفة تساعد سارا على تبديل ثيابها بالثوب الأسود القديم الذي أمرتها الآنسة منشن بارتدائه. وكانت مارييت أيضًا قد ازدادت ولعًا بسارا وكانت تخشى أن يكون هذا هو آخر شيء يُسمح لها بأن تفعله من أجلها. وبدا على سارا أنها لم تكد تلحظ وجود مارييت.

ظلت سارا تقول لنفسها في هدوء: «مات أبي. مات أبي.»

لفَّت مارييت إيميلي أيضًا بوشاح أسود بدا لها أنه مناسب.

صرخت سارا: «آه يا إيميلي! هل عرفتِ بما جرى؟ لقد مات والدي! مات في الهند على بعد آلاف الأميال!»

وبدا أن إيميلي قد خرقت قواعد الطبيعة لحظة من الزمن، ودبت فيها الحياة فقط لكي تحدق إلى سارا في شجن عميق من المقعد القريب الذي تجلس عليه. لكن اللحظة انقضت، ومرة أخرى بدت إيميلي لا تزيد عن كونها قطعة من الجماد مغطاة بالأقمشة.

صرخت سارا وهي تهز دميتها: «لقد مات أبي!» فما كان من إيميلي إلا أن رقدت باسترخاء بين يدي سارا.

انسحق فؤاد سارا انسحاقًا لم تذق مثله من قبل، فأجهشت في البكاء، وألقت بإيميلي على الأرض وهي تتمنى من داخلها أن تنكسر.

صرخت سارا: «مات أبي وأنتِ لستِ سوى دمية! دمية ... دمية ... دمية!»

رقدت إيميلي على الأرض ورجلاها مثنيتان على نحو غريب فوق رأسها وقد انكسر طرف أنفها فصار مفلطحًا. ما زالت إيميلي تبدو هادئة بل وبدت عليها المهابة.

استبد الندم بسارا التي هرعت سريعًا لتلتقط إيميلي من على الأرض. ومرة أخرى بدا أن شيئًا من الحياة دب في الدمية التي نظرت بدورها إلى سارا نظرة متعاطفة تعاطفًا يشوبه الجمود.

أطلقت سارا تنهيدة متعَبة، وقالت: «آسفة، إني موقنة أنه لا حول لكِ ولا قوة.»

وآنذاك قرعت إحدى الفتيات باب سارا حاملة لها رسالة من الآنسة منشن التي كانت تطلب حضورها إلى الطابق السفلي.

كانت سارا لا تزال تحمل إيميلي عندما دخلت مكتب الآنسة منشن.

قالت الآنسة منشن معنفةً إياها: «ماذا تقصدين بإحضارك دميتك إلى هنا؟ ضعيها أرضًا.»

أجابتها سارا: «لا، هي كل ما أملك في الحياة الآن. لقد منحني والدي إياها لتؤنس وحدتي.»

أرادت الآنسة منشن أن تنتزع الدمية من سارا لكنها لم تستطع؛ فلطالما كانت سارا تجعلها مضطربة في داخلها، ومع حملقة سارا الثابتة في عينيها اضطربت الآن أيضًا. في حقيقة الأمر كان يساور الآنسة منشن آنذاك شيء من الخوف من سارا؛ لأنها كانت تعرف في داخلها الشر الذي تنوي فعله.

قالت الآنسة منشن في برود: «لن يكون لديك متسع من الوقت لتقضيه بصحبة الدمى بعد الآن. زمن الرغد ولَّى وزال. وها قد صرتِ وحيدة تمامًا في العالم بأسره.»

للحظة، عبس وجه سارا الهزيل الشاحب الصغير، لكنها لم تنبس ببنت شفة أيضًا، بل لم تبك أو تظهر عليها أمارت الخوف. كانت شجاعتها أكبر من أن تصمد الآنسة منشن أمامها.

سألتها الآنسة منشن في حدة: «إلام تحدقين؟ ولمَ أنتِ صامتة؟ ألا تفهمين ما أقوله لكِ؟ لقد أصبحتِ الآن، مع كل مظاهر الفخامة التي كانت تحيط بك، فقيرة معدمة. سوف تعملين هنا مقابل قُوتَك ولكي تسددي جميع الديون المستحقة عليكِ لي.»

ردت سارا في نبرة حزينة: «أفهم. والآن هل تأذني لي بالانصراف؟»

واستدارت سارا في تؤدة كي تغادر الغرفة.

فقالت لها الآنسة منشن: «قفي مكانك! ألن تشكريني؟»

توقفت سارا في ذهول، ونظرت إلى الآنسة منشن نظرة استغراب، وسألتها: «علامَ أشكرك؟»

ردت الآنسة منشن: «بالطبع على عطفي عليكِ؛ على سماحي لكِ بالبقاء هنا؛ على منحي إياكِ منزلًا يأويكِ.»

غمرت مشاعر الكبرياء سارا لدى سماعها هذه الكلمات، وقالت وهي تتشبث بإيميلي بقوة: «أنتِ لستِ عطوفة، ولن يكون هذا منزلي أبدًا!» ثم استدارت وركضت إلى خارج مكتب الآنسة منشن عائدة إلى غرفتها.

بيد أنه عندما بلغت سارا باب غرفتها وجدت الآنسة أميليا تقف أمامه.

قالت الآنسة أميليا وهي خجلى من نفسها لاضطرارها أن تنفذ تعليمات أختها: «أنا آسفة، لكن هذه لم تعد غرفتك. من المقرر أن تنامي في العلية في الغرفة المتاخمة لغرفة بيكي.» رأت سارا أن هذه هي بداية التغيير الذي أنبأت به الآنسة منشن.

كانت سارا تعرف موضع العلية، فلقد حدثتها بيكي عنها مرارًا كثيرة، لذا استدارت وارتقت مجموعتين أخريين من درجات السلم. وفيما كانت ترتقي السلم شعرت وكأنها تترك وراءها كل شيء عهدته في حياتها. وعندما بلغت قمة السلم، شعرت وكأنها مخلوق مختلف تمام الاختلاف.

وكان سقف غرفتها الجديدة مائلًا، وجدرانها مقشرة الطلاء، وبين جدرانها سرير متحجر يغطيه لحاف رفيع بال، ومدفأة صدئة صغيرة، وعدد من قطع الأثاث المعدومة البالية. وتحت النافذة المكسورة الزجاج مسند قدمين مكسور، قصدته سارا وجلست عليه. نكَّست سارا رأسها، واحتضنت نفسها، وأخذت تتمايل بجسدها. وحتى هذه اللحظة لم تبكِ سارا.

سمعت سارا طرقات خفيضة على بابها، تلاها وجه يختلس النظر في تردد. كان وجه بيكي، الذي — علاوة على كونه ملطخًا ومتسخًا طوال الوقت — كان شديد الحمرة الآن من البكاء.

قالت بيكي: «آنستي، هل تسمحين لي بالدخول؟ هل هناك أي خدمة يمكنني أن أسديها لكِ؟ من فضلك، اسمحي لي أن أظل في خدمتك؟»

رفعت سارا رأسها، وقد نوت أن تبتسم لها، لكن عندما رأت المحبة والحزن على وجه بيكي، تفجر شيء بداخلها، وأخيرًا انهمرت دموعها.

قالت سارا باكية: «أشكرك يا بيكي، لكن ليس في وسع أحد فعل أي شيء. لن تخدميني مرة أخرى، أتفهمين ذلك؟ لقد كنتُ على حق، فنحن لا نزيد عن كوننا فتاتين صغيرتين، لا فرق بيننا. ولم أعد أميرة بعد الآن.»

ركضت بيكي نحو سارا وجثَت على قدميها بجانبها وهمّت بمعانقتها وقالت باكية: «لا يا آنسة، أنتِ أميرة. ومهما حدث فستظلين أميرة على الدوام، ولا يستطيع أي شيء أن يجعلك غير هذا!»

الفصل الخامس

الجندي الأبِيُّ لا يتبرم

كانت ليلة سارا الأولى في العلية هي أشنعها في كل حياتها.

كانت الغرفة نفسها مروعة جدًّا؛ بأرضيتها الخشبية المجردة من الأغطية، وفراشها المتحجر، والرياح التي تعوي فوق رأسها. والأدهى من هذا وذاك، صوت خدوش الأظافر، والصرير الحاد الخفيض الآتي من الجدران. أدركت سارا أن هذه الأصوات أصوات الجرذان.

بيد أن أكثرها رعبًا على الإطلاق هي فكرة أن والدها يمكن أن يكون ميتًا بالفعل، وأنها لن تراه ثانية، وأنها باتت وحيدة في العالم بأسره. ومهما بلغ عدد المرات التي كررت فيها سارا هذه الجملة على نفسها، فهي ما زالت لا تستطيع أن تصدقها.

لكن الآنسة منشن ستكون خير عون في إقناعها بتصديق موت والدها.

في صبيحة اليوم التالي مرت سارا بباب الغرفة التي كانت غرفتها فيما مضى وكان مفتوحًا. اختلست نظرة خاطفة إلى الغرفة من الداخل، فرأت أنهم تخلصوا من كل الأشياء أو استبدلوها بأخرى، وكأن كل أثر للفتاة التي اعتادت أن تكون وللحياة التي اعتادت أن تحياها عندما كان والدها لا يزال على قيد الحياة؛ قد مُحي تمامًا. فكرت سارا في أن الآنسة منشن لا بد أن تكون قد أخذت كل حليها وملابسها الثمينة لتبيعها وتسترد ما أنفقته على حفل عيد ميلادها.

لم تحبذ سارا أن تخطر لها تلك الأفكار الشريرة عن السحر أو عن الكبار، فلطالما كان السحر والتخيل محببين إلى نفسها، بل كانا بمثابة أكبر المصادر التي تستمد منها قوتها، لكن بدا حينئذٍ أن السحر والخيال لن ينفعاها في شيء.

أخبرتها الآنسة منشن عندما نزلت إلى الدور السفلي: «تبدأ حياتك الجديدة اعتبارًا من اليوم. ستعملين لحسابي لقاء مكارم أخلاقي إذ لم أرم بكِ في الشارع. وستستهلين عملك برعاية الفتيات الأصغر وتعليمهن اللغة الفرنسية والمواد الدراسية الأخرى.»

رأت سارا أن هذا لن يكون سيئًا للغاية، فلقد أحبت أن تمضي الوقت بصحبة الفتيات الأصغر وأن تعلمهن أشياء جديدةً، علاوة على أن تعلقهن الدافئ بها ومشاعرهن الصادقة نحوها يوقظان في نفسها البهجة والفرح. ولم تكن سارا تعرف أن هذا ليس إلا بداية الأوجاع.

سوف ترسل الآنسة منشن سارا لقضاء مهام في أي وقت من النهار أو الليل وفي أسوأ الظروف المناخية. بل كانت ترسل سارا حاملة الرسائل لأشخاص في المدينة وأيضًا لتسديد فواتيرها، وهي المهمة التي ما كان يقدر عليها فتى يتحلى بالشجاعة والمسئولية. ومع أن سارا كانت فتاة صغيرة هزيلة، عادة ما كانت الطاهية ترسلها لتشتري مستلزمات الطعام. فكانت سارا تقطع الطرقات حاملة سلَّة ثقيلة بين ذراعيها. وقد أسندت الآنسة منشن إلى سارا كل المهام الصعبة الكريهة التي ما كان ليفعلها الخدم الآخرون.

أما عن بقية الخدم، من طاهية وخادمات، فمع أنهم كانوا خدمًا أيضًا، ما كان منهم إلا أن يفرضوا سلطتهم على الأصغر والأحدث بينهم. وقد اعتادت سارا أن تتصرف على نحو اعتبروه تعاليًا، ولم يخْفَ على أحد أن الآنسة منشن تكرهها، لذا بدا للخدم أن مثل هذه المعاملة هي الأنسب معها.

حاولت سارا أن تظل صابرة وألا تتبرم أو تشكو. وتمنت أن يرى الجميع أنها مخلصة ونشيطة في عملها فيرِقُّون لها ويحسنون معاملتها بمرور الوقت.

لكن الصواب جانبها في هذا الأمر؛ فكلما حاولت جاهدة أن ترضيهم وأن تفعل ما يُطلب منها، زادت خسَّة الجميع وزادت معها مطالبهم.

ومع كل يوم يمر بها، ازدادت حزنًا وغمًّا وزاد شعورها بالوحدة والوحشة. وكان أصعب شيء عليها هو الخروج من المدرسة ورؤية الناس الآخرين؛ فعندما كانت لا تزال الأميرة سارا، كانت نظرة فقط إلى وجهها المشرق المفعم بالحيوية والنشاط تجعل الناس يبتسمون، ولا سيما عندما كانت في الهند.

لكن لم يعد أحد يلتفت إليها بعد، بل إذا وقع نظر أحدهم عليها مصادفة، بدا وكأنه يريد أن يحول نظره بعيدًا عنها بأقصى سرعة ممكنة. لا بد أن منظرها أضحى كريهًا.

في بعض الأحيان، عندما يحل الظلام، كانت تقف أمام النوافذ المضيئة وتحدق في الغرف الدافئة المليئة بالأسر السعيدة. ومن الأسر التي كانت تبدو سعيدة للغاية أسرة تقطن نفس الميدان الذي تقع فيه المدرسة على بعد منزلين من المدرسة فحسب. وكانت سارا تطلق عليهم أسرة لارج أي الأسرة الكبيرة، ليس لأن أفرادها كبار فحسب، وإنما لأن عددهم كبير أيضًا، فكان في الأسرة ثمانية أطفال. وقد بدت أمارات السعادة على الأطفال الثمانية وكذلك على والديهم، وبدا أن روابط المحبة تربط بعضهم ببعض وبالعالم من حولهم. كانوا دائمًا يتبادلون النكات والهدايا ويخرجون للتنزه معًا.

وكان المنزل المجاور للمدرسة مباشرة قد ظل خاويًا فترة من الزمن، لكن سرعان ما أُضيئت شرفاته. ففي يوم من الأيام، وفيما كانت عائدة من أداء بعض المهام التي كُلِّفت بها، رأت شاحنة تقف أمام هذا المنزل؛ الأمر الذي بعث البهجة الشديدة في نفسها. فكَّرت سارا أنها إن تمكنت من رؤية بعض الأثاث، فربما تستشف شيئًا عن الجيران الجدد.

بدا الأثاث المنقول إلى هذا البيت مألوفًا لسارا؛ كانت هناك قطع أثاث مصنوعة من خشب الساج، وأخرى موشاة بزخارف شرقية. عجبًا، لقد رأت أشياء كهذه في الهند! تساءلت تُرى هل يكون جارها الجديد الذي يعيش بمفرده من الهند أيضًا؟ وعندما نظرت بالداخل لم تر أسرة سعيدة كبيرة العدد، وإنما رجلًا وحيدًا. فكَّرت سارا أن هذه هي الأسرة الصغيرة لأنه ليس هناك رقم أصغر من واحد.

وعندما مرّ السيد لارج ليلقي التحية على الجار الجديد، تساءلت هل أفراد الأسرة الكبيرة وتلك الأسرة المكونة من فرد واحد أصدقاء؟ تمنت سارا ذلك من أجل مصلحة الجار الجديد الوحيد. لكن أكثر شيء تعجبت له سارا عندما اختلست نظرة إلى الرجل عبر الشرفة المنيرة، هو أن السيد الوحيد بدا مريضًا ومكلومًا؛ فهل افتقد أحدًا كما افتقد والدها «سيدته الصغيرة» قبل أن يموت؟

من الأشياء التي أحبتها سارا أن عبء الواجبات الدراسية أخذ يزداد صعوبة.

قالت الآنسة منشن: «لا يحتاج الخدم إلى التعليم المدرسي.» وما كانت تقصده بذلك هو أن الخدم ليس لهم الحق في تلقي الدروس. ومع ذلك، كان منتظرًا من سارا بعد أن تمضي يومًا طويلًا تلبي فيه طلبات الجميع، أن تذهب إلى أبعد حجرة دراسية وأكثرها ظلامًا كي تستذكر دروسها بمفردها في الليل. وعادة ما كانت تروح في سبات عميق فوق كتبها، وتستيقظ في الصباح التالي على صوت صفعة أو تعنيف شديد. إذا لم تواصل

مذاكرتها، فربما تُحرم من التدريس للفصول الأكبر. هذا هو المستقبل الذي اضطرت سارا أن تتطلع إليه في مدرسة الآنسة منشن.

لكن التحول الكبير كان في الطريقة التي تعاملها بها الفتيات الأخريات؛ فبينما كانت الفتيات ينجذبن إليها في إعجاب في الماضي، أصبحن غير جديرات بالثقة ويصعب التعامل معهن، ولا سيما بعد أن أصبح ثوبها الأسود الوحيد أقصر طولًا وأكثر اهتراءً، وبات حذاؤها كثير الثقوب، ووجهها أكثر شحوبًا وهُزالًا. وبعد فترة وجيزة، أُمرت سارا بأن تتناول طعامها في المطبخ بصحبة سائر الخدم.

ومع أن معاملتهم لها أحزنتها للغاية، فإنها كانت شديدة الاعتزاز بكرامتها فلم تحاول أن تستعيد ثقتهن مرة أخرى. لقد صار قلبها أقوى من جسدها الهزيل وأكثر منه تألمًا. ولم تبح سارا لأي أحد قط عما يخالج فؤادها، إذ كانت ترى أن «الجندي الأبِيَّ لا يتبرم.»

بيد أنه في بعض الأيام، كان فؤادها يعتصر من الوحدة. حتى صديقتها القديمة إرمنجارد خذلتها على ما يبدو؛ فقد مرت الأسابيع على التحول الكبير الذي حدث في حياتها دون أن تراها على الإطلاق. لكن في أحد الأيام، وبينما كان ذراعاها محمَّلين بملابس تحتاج إلى التصليح، إذ بها تلتقي مصادفة بأفضل صديقاتها سابقًا في الردهة.

فما كان من إرمنجارد إلا أن وقفت في مكانها وحملقت، وقد انفغر فمها. حملقت إرمنجارد لأنها لم تتخيل قط أن يئول حال سارا إلى هذا المنظر الغريب والفقر المدقع كالخادمة. أرادت أن تبكي، لكنها كانت في قمة الضجر والتوتر حتى إنها بدلًا من أن تبكي انفجرت في نوبة قصيرة من الضحك، وسألت سارا في غباء: «هل هذه أنتِ يا سارا؟»

أجابت سارا باقتضاب وقد تورد وجهها من الخجل: «أجل.»

قالت إرمنجارد وقد استحوذ عليها الخجل: «كيف ... حالك؟»

في السابق لم تضق سارا ذرعًا قط بإرمنجارد البليدة المسكينة، لكنها فجأة شعرت وكأن إرمنجارد لا تختلف كثيرًا عن سائر الفتيات اللاتي تخلَّين عنها.

فقدت سارا أعصابها، وانفجرت فيها قائلة: «كيف ترين حالي؟ يا لكِ من غبية حقًّا، ألستِ كذلك!» انفطر قلب سارا من قسوتها، ومن نظرة الخجل والحزن التي كست وجه إرمنجارد، فاستدارت سارا، ومشت بعيدًا.

ومنذ ذلك اللقاء، حاولت سارا أن تتحاشى سائر الفتيات تمامًا، وقد يسرت الآنسة منشن عليها هذا الأمر. وكانت سارا ترى إرمنجارد بين الفينة والفينة جالسة وحدها في

مقعد الشرفة، جاثمة في أحد الأركان تبكي، فكانت تتملكها رغبة في الهرع إليها والاعتذار لها، لكن اعتزازها الشديد بنفسها كان يمنعها من ذلك.

وكان يخفف من كربها أنه لا تزال هناك بيكي على الأقل، فقد كانت بيكي واحدة من مصادر السلوان المحدودة في حياتها الجديدة الشاقة. وبالطبع لم يكن هناك متسع من الوقت في أن تحدث إحداهما الأخرى أثناء النهار، ولم يكن لهما الحق في ذلك، لكن قبل أن يطلع الفجر كانت بيكي تتسلل أحيانًا إلى غرفة سارا لتلقي عليها التحية وتساعدها بشتى الطرق الممكنة. وفي الليل قد تعرج بيكي على سارا لزيارتها مرة أخرى، وكانت دائمًا تطرق الباب أولًا في تواضع.

وقد دأبت بيكي على أن تطلب منها: «أتسمحين لي أن أظل خادمتك يا آنسة؟»

لكن سارا ترفض طلبها بحسم على الدوام وتقول لها مرارًا وتكرارًا: «لا فرق بيني وبينك، نحن لسنا سوى خادمتين صغيرتين نعيش في العلية.»

وعندئذ حدث أمر مشوق؛ بدا أن قريحة سارا الإبداعية الخيالية، التي غرقت طيلة الأسابيع الماضية في شيء من الركود، اضطرمت فيها شرارة الاشتعال لحظات. حتى إن بيكي نفسها لاحظت هذا أيضًا.

همست بيكي: «ما الأمر يا آنسة؟»

قالت سارا وعيناها متلألئتان: «لقد جانبني الصواب في هذا الأمر، نحن أكثر من مجرد خادمتين؛ نحن سجينتان مسكينتان منذ زمن. لقد اندلعت الثورة الفرنسية، وأُسِرْنا وزُجَّ بنا في سجن الباستيل في باريس!» ثم قالت سارا فجأة وبصوت مرتفع: «والآنسة منشن هي السجان، وأنتِ السجينة الموجودة في الزنزانة المجاورة!»

وافقت بيكي التي شعرت بالحماس في داخلها: «أجل يا آنسة، أنا سجينة في الزنزانة المجاورة.» وكانت تشعر بالسعادة ليس بالتفكير في أنها سجينة، ولكن بالتفكير في أن سارا وقصصها قد عادتا إلى الحياة مرة أخرى.

الفصل السادس

الزوّار

بعد مرور أسابيع عديدة من الوحدة، وفي ليلة من الليالي، بعد أن بلغت سارا الخائرة القوى قمة السلم المؤدي إلى العلية، اندهشت لدى رؤيتها وميض ضوء شمعة يتسلل من تحت باب غرفتها.

فتحت سارا الباب لتجد إرمنجارد مرتدية ملابس النوم ومتدثرة في وشاح أحمر، وجالسة على مسند القدم المكسور. وعندما رفعت إرمنجارد رأسها، رأت سارا أن أنفها وعينيها تلونوا باللون الوردي من البكاء.

صرخت سارا: «إرمنجارد! لا يجدر بكِ أن تكوني هنا، ستعرضين نفسك لمشكلة.»

قالت إرمنجارد: «أعلم، لكنني لا أبالي.» ثم أغمضت عينيها بقوة فسقطت منهما دمعتان كبيرتان على وجنتيها الورديتين. ثم سألت: «سارا، أرجوك أخبريني، لِمَ لَمْ تعودي تحبينني؟»

شعرت سارا بالرغبة في البكاء.

ثم أجابتها: «لكنني أحبك بالفعل. لقد ظننت أنك أنتِ التي ما عُدتِ تحبينني!»

اندفعت الفتاتان وتعانقتا بقوة. ولأول مرة على الإطلاق تكون إرمنجارد هي من يبادر بالابتعاد أولًا، وعندئذٍ أدركت سارا كم كانت وحيدة دون أعز صديقاتها.

قالت إرمنجارد: «لم أعد أستطيع أن أتحمل هذا، لذا اضطررت أن أصعد إلى هنا وأترجاكِ كي نعود صديقتين من جديد.»

قالت سارا: «أنتِ أطيب مني، لقد افتقدتكِ أيضًا، لكن كبريائي منعني أن أقول أي شيء.» ثم قطبت سارا جبينها وأضافت: «كما ترين حالي الآن، وبعدما نفد ما لدي من حظ، اكتشفت أنني مع كل هذا لست طيبة.»

أدارت إرمنجارد بصرها في أرجاء غرفة العلية يخالجها شيء من الخوف والفضول في الوقت ذاته، ثم سألت سارا: «كيف تطيقين العيش هنا؟»

أدارات سارا بصرها أيضًا في أرجاء الغرفة، فرأت أنها بدأت تعتاد على المكان بالفعل.

أجابت سارا: «أحاول أن أتخيل أنني أقطن مكانًا آخر فحسب. لم أستطع بعض الوقت أن أمارس التخيل بصفة عامة أو أن أروي القصص، حتى بيني وبين نفسي.» أومأت سارا بطريقة جادة، ثم قالت: «لكن كل شيء آخذ في العودة إليّ الآن تدريجيًّا.»

أخبرت سارا إرمنجارد كيف أنها هي وبيكي وإيميلي سجينات في سجن الباستيل، فانجرفت إرمنجارد لتوها في بحر خيال سارا. لقد افتقدت كثيرًا القصص التي تقصُّها سارا على مسامعها.

فطلبت منها: «من فضلك أخبريني بالمزيد عن سجن الباستيل. أيمكنني أن أتسلل إلى هنا ليلًا من وقت لآخر عندما تكون الأجواء آمنة، وأزورك.»

أخبرتها سارا أنه بمقدورها فعل ذلك إذا توخت الحذر الشديد.

لكن فجأة رأت الفتاتان مقبض الباب يُدار. تساءلتا في قلق عمن يكون القادم. هل الآنسة منشن؟ أم الآنسة أميليا؟ هل واحدة من الفتيات الكبار، مثل لافينيا، التي ستشي بهما قطعًا؟ لكن عندما فُتح الباب، تبين أنها لوتي الصغيرة. يبدو أن هذا اليوم هو يوم مليء بالزوار.

ومع أن سارا كانت مرتبكة، فإن زيارة ابنتها «بالتبني» لم تثر دهشتها تمامًا. لكن لوتي، التي كانت في السابعة من عمرها فحسب، ارتبكت كثيرًا بسبب التغيير المفاجئ الذي طرأ على أمها التخيلية، وقد حاولت أن تصل إلى سارا كي تستفهم منها إلى أين أخذوها ولماذا.

رفضت سارا أن تخبرها، لكن لوتي كانت طفلة عنيدة. وكانت قد استرقت السمع إلى نميمة الفتيات الكبريات حول سارا. وفي هذه الأمسية شرعت في رحلة الاستكشاف؛ فارتقت سلمًا لم تكن تعلم بوجوده من قبل؛ صعدت درجات كثيرة للغاية حتى إنها ظنت أن رجليها سوف تنفصلان عن جسدها، إلى أن بلغت العلية ورأت الضوء المتسلل من تحت باب غرفة سارا.

في بادئ الأمر غمرتها الفرحة الشديدة لعثورها على سارا، لكن عندما وقعت عيناها على غرفتها الخاوية القميئة، عبس وجهها. صاحت لوتي في خوف: «سارا أمي!» وبدت

وكأنها ستهم بالبكاء وضرب الأرض مجددًا، وهو ما لم تفعله منذ زمن. قالت لوتي: «حتمًا أنتِ لا تعيشين هنا؟»

توسَّلت سارا: «أرجوكِ يا لوتي، لا تثيري جلبة وإلا سأُعنَّف بلا شك، كفاني التعنيف الذي يحل بي طوال اليوم.» حملت سارا نفسها على الابتسام، ثم استطردت: «فضلا عن أن الغرفة ليست بهذا القدر من السوء.»

سألتها لوتي في استنكار وهي تحدق حولها مرة أخرى ويظهر عليها الارتياب: «ليست بهذا القدر من السوء؟ ولِمَ لا؟»

أضافت إرمنجارد، وهي تبدو مرتابة مثل لوتي تمامًا: «نعم، بالضبط.» وقد نسيت تمامًا قصة سجن الباستيل المثيرة.

قالت سارا: «مبدئيًّا، من حسن حظي أنني أقطن علية ذات نوافذ، فليست كل العليات لها نوافذ كما تعرفان، علاوة على أنه بمقدوركما أن تشاهدا عبر هذه النوافذ شتى أنواع الأشياء التي لا تستطيعان أن ترياها من الأدوار السفلى.»

سألتها لوتي: «أي أشياء هذه؟»

أجابت سارا: «الأسقف الساحرة، والأسوار التي يغطيها السخام، والمداخن التي يتصاعد منها الدخان مموجًا في أشكال رائعة، والعصافير الجميلة التي تشقشق وهي تبحث عن فتات الطعام. وقطرات المطر الكبيرة التي تنهمر من السماء وتتلاطم بالأسقف المغطاة بأحجار الأردواز وكأنها قطع من الحلوى، إضافة إلى مغيب الشمس الرائع بلونيه الأحمر القاني والذهبي المتلألئين! وأيضًا السحب الصغيرة التي تشبه كومة الصوف الأبيض الناعم والتي تسبح مهرولة عبر السماء الزرقاء تركب أمواج الرياح.» ثم أشارت سارا نحو الخارج على المبنى المجاور، فأخذت لوتي وإرمنجارد تنظران إليه، فاسترسلت سارا: «وكذلك نوافذ العليات الأخرى مثل هذه النافذة القريبة، حيث يمكن أن تطل منها رءوس أناس آخرين في أي لحظة.»

انقطعت سارا عن الكلام، وأخذت تنظر هي أيضًا نحو نافذة العلية المجاورة، فوجدتها شديدة القرب لا يفصلها عنها سوى امتداد سطح المنزل، حتى إنه قد يمكن لشخص يحفظ توازنه جيدًا أن يسير بسهولة إليها. ومع أنها تمنت كثيرًا أن يأتيها عبر هذا السطح من يؤنس وحدتها، فإن أحدًا لم يفعل هذا.

استرسلت سارا محاولة أن تسترجع نبرتها الباعثة على البهجة: «غرفتي صغيرة للغاية ومرتفعة فوق كل شيء، فهي أشبه بالعش الجميل الذي يسكن أحضان الشجر.

وعندما أستلقي في فراشي وأطل عبر النافذة، أشعر وكأني أستطيع بالتأكيد أن ألمس السحب والنجوم.»

لم يساور الشك إرمنجارد في أن سارا تستطيع أن تفعل هذا.

همست لوتي: «وماذا أيضًا؟»

قالت سارا: «حسنًا، انظري إلى هذه المدفأة الصدئة، وتخيلي كم ستكون رائعة وجميلة إذا كانت مُلمَّعَة وموقدة بالنيران.» أطلقت سارا تنهيدة، وأغمضت عينيها، وقالت: «تخيلي أن هناك سجادة على الأرض ناعمة وزرقاء وسميكة على الطراز الهندي، وأريكة وثيرة مريحة في هذا الركن وعليها وسادات لنتكئ عليها. وتخيلي أن هناك مكتبة فوق الأريكة تعج بالقصص الرائعة، وسجادة من الفرو أمام المدفأة، ومصابيح، ورسومات على الجدار، وطعام دافئ شهي موضوع أمامنا كأننا في نزهة ...»

أنهت سارا كلامها (إذ أصبحت منهكة للغاية): «وتخيلي لحافًا ناعمًا دافئًا على السرير، أستلقي عليه وأنعم بمثل هذه الأحلام الرائعة!»

قطع صوت نبش أظافر مرتفع آتي عبر الجدران رحلتهن الخيالية.

فقالت لوتي وإرمنجارد في صوت واحد: «ما هذا؟»

ابتسمت سارا وقالت: «لا تقلقن، هذا ملكيسيديك، فأري المدلل.»

سألتها إرمنجارد في توتر وهي تُحكم لفَّ وشاحها الأحمر حولها: «فأرك المدلل «التخيلي»؟»

قالت سارا: «لا.» وعندئذ أخذت تشرح لهما كيف أنها أقامت في الأسابيع الماضية علاقة صداقة مع أحد الفئران عندما تأكد لها أنه لم يتبق لها أي أصدقاء في العالم، وقد أطلقت عليه اسم ملكيسيديك. وقد اكتشفت سارا أنه في غاية الخجل واللطف. وعلى نفس قدر خوف سارا منه كان هو أيضًا مرتاعًا منها، ولم يتطلب الأمر منها سوى بعض الفتات الفائض من المطبخ كي تكسب وُدَّه.

همست لوتي: «هذا يشبه القصص تمامًا.»

أجابتها سارا: «بالطبع، فكل شيء في الحياة هو قصة!»

وفيما كان ثلاثتهن مفتونات بملكيسيديك، لم يلاحظن أن ثمة رأس أخرى قد أطلت أخيرًا من نافذة العلية القريبة منذ بضع دقائق. كانت الرأس لخادم هندي الأصل، أسود الوجه، يعصب رأسه بعمامة بيضاء.

ولمّا كانت نافذتا العليتين مفتوحتين، استطاع الخادم أن يسمع كل ما قيل. ولمّا كان يخشى أن ينسى ولو حتى أحد التفاصيل الصغيرة، انكب على مجموعة من الأوراق يدون كل ما يتطرق إلى أذنيه.

ومع أن زيارة لوتي وإرمنجارد إلى سارا شددت من عزمهما، لم تستطيعا أن تجازفا بالمكوث وقتًا أطول من ذلك. وبعد أن عانقتا صديقتهما لتوديعها، تسللتا عائدتين إلى الطابق السفلي.

لكن سارا أخذت تكرر على نفسها: «كل شيء هو قصة.» وأخذت تحدق في أرجاء العلية مرة أخرى، وإذ بسحر قصصها التي كانت ترويها من أجل الفتاتين الأخريين يزول تمامًا. وعاد كل شيء قاسيًا جامدًا مرة أخرى؛ فعادت إيميلي مجرد دمية، وحتى ملكيسيديك لم يكن بمقدوره أن يريحها. تنهَّدت سارا، وقالت: «يا له من مكان موحش، إنه أكثر مكان موحش في العالم!»

ما زال الخادم يسترق السمع من العلية القريبة، ولم يكن في حاجة لأن يدون قولها هذا، فهو لن ينسى أبدًا مدى الوحدة والحزن اللذين تعيش فيهما هذه الفتاة الصغيرة. بل إنها ذكَّرته بسيِّده الهندي الذي يرقد في الطابق السفلي، والذي يبحث عن فتاة صغيرة في عمر سارا. ورأى الخادم أن هناك الكثير من الأشياء التي تجمع ما بين هذه الفتاة وسيِّده، وفكَّر أنه ربما تكون هناك طريقة لمساعدتهما.

وقبل أن تأوي سارا إلى فراشها، طرقت برفق على الجدار ثلاث مرات؛ كانت هذه الشفرة السرية التي اتفقت عليها مع بيكي ومعناها: «أيتها السجينة، هل أنتِ موجودة؟»

وبعد دقيقة من المفترض أن ترد بيكي بثلاث طرقات مثيلة من الجانب الآخر من الجدار معناها: «أجل، أنا هنا، وكل شيء على ما يرام.» ولم تكن الفتاتان على ما يرام قط، لكنهما كانتا تقولان هذا على كل حال.

وعندئذ تردُّ سارا بطرقة رابعة معناها: «إذن لنخلد إلى النوم في سلام يا رفيقة الكفاح، طابت ليلتك.»

في الصباح التالي، كانت سارا تطل من النافذة على أمل أن تلمح شروق الشمس عندما صدر صوت صرير طريف من مكان قريب. بدا كصوت فأر عملاق يلهو في مكان ما فوق السقف. لكن عندما أطلَّت سارا لم تر فأرًا وإنما رأت قردًا يطل برأسه من نافذة العلية المجاورة المفتوحة مثل عفريت العلبة.

وخلف القرد، ظهرت فجأة مفاجأة أخرى؛ الوجه المبهج الباسم للخادم المعصوب الرأس بالعمامة البيضاء. تعجبَت: «قرد وخادم هندي ... لا بد أنني أحلم! هل وافتني المنية وعدت إلى السماء في الهند؟»

وقبل أن تستطيع الإجابة عن تساؤلاتها، شاهدت هي والخادم القرد المرح وهو يهرول فوق السقف ويفتح نافذة سارا، وما إن دخل غرفتها حتى أخذ يثب في جنون في كل أرجاء الغرفة.

لكن سارا لم تفزع من وجود القرد، فقد اعتادت أن تحيط بها العديد من القِرَدة في الهند، وقد أضحكها هذا القرد الصغير النشيط. كانت تعلم أيضًا أن القرد لا بد أن يرجع إلى صاحبه، فاستدارت تجاه الخادم مبتهجة بأنها لا تزال تتذكر بعض اللكنات الهندية التي تعلمتها أثناء وجودها في الهند مع والدها، وسألته باللغة الهندية: «هل سيدعني أمسك به؟»

لم تر سارا مثيلًا لأمارات الدهشة أو البهجة التي علت وجه الخادم في تلك اللحظة.

أجابها الخادم في لكنة إنجليزية جميلة: «ربما لا.» ثم قدَّم نفسه لها منحنيًا انحناءة مهذبة راقية: «اسمي رام داس.» ثم أضاف: «إنه قرد لطيف، لكنه عنيد وجامح كالطفل الصغير، ويصعب الإمساك به. لكن هل تأذني لي بأن أعبر السقف وأقف عند حافة نافذتك وأناديه؟ فلعله يقفز إلى ذراعي مباشرة.»

التفتت سارا إلى القرد الذي كان يقفز في أنحاء الغرفة كأنه خائف، وقالت للخادم: «من فضلك افعل هذا.» إذ كانت تخشى أن يؤذي القرد نفسه.

وكان رام داس على حق؛ فما إن لمح القرد وجه سيده الوسيم والعمامة البيضاء حتى قفز إلى كتف سارا أولًا ثم خرج من النافذة، وقبل أن يغيب عن النظر التفت إلى سارا وأطلق صرخة صغيرة يعبر فيها عن شكره لها.

ردَّت سارا وهي تضحك: «يسرني أن أكون في خدمتك.»

لكن رام داس لم يكن سعيدًا؛ إذ استطاع بعينيه أن يلمح في نظرة واحدة عبر النافذة كآبة غرفة سارا التي بلغت أوجها؛ فليس بالأمر المضحك أن تُترك فتاة صغيرة لتعيش بهذه الطريقة. لكنه لم يفصح عن مشاعره الحقيقية أمام سارا، فعندما تحدث إليها بدا وكأنه يتحدث إلى ابنة أمير هندي.

اعتذر الخادم إلى سارا عن أي إزعاج قد يكون القرد سببه لها، ثم شرح لها سبب وجود القرد: «سيدي سقيم للغاية، وهذا المشاغب الصغير يبعث في نفسه الكثير من

البهجة.» وبعدها رفع يده ليحييها، وابتسم. ثم اجتاز السقف الأردوازي عائدًا إلى نافذته بخطى ثابتة كالقرد نفسه.

الفصل السابع

الشحَّاذة الصغيرة

بعدما رحل الخادم وقفت سارا في منتصف غرفتها تغمرها الذكريات. وكان الخادم هو من أعاد ذكرياتها إليها، لا سيما عندما تحدث إليها بلطف شديد وكأنها لا تزال أميرة صغيرة، ولا تزال تتمتع بالحق الإلهي في الوجود في هذا العالم.

ومع أنها قد استعادت قدرتها على ابتكار القصص الخيالية في الأيام الأخيرة الصعبة مما أنقذ حياتها بحق، فكَّرت سارا أن هناك «تخيلًا» واحدًا ما زالت لا تستطيع أن تنعشه من جديد؛ وهو كونها أميرة. رأت سارا أنه حتى أعظم خبير في الخيال لا يستطيع أن يحيي هذا الأمر لديها في ظل أوضاع حياتها الحالية.

لكن رؤيتها للخادم والقرد قد شدت من عزمها من جديد. فكرت سارا في نفسها: «حتى إذا كنت أميرة وهمية ترتدي ملابس بالية ورثَّة، يمكنني أن أظل أميرة حقيقية في داخلي.»

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، تعاملت سارا مع الآخرين على هذا الأساس؛ فكلما عاملها أحد بقسوة، ثبَّتت عينيها في عينيه، وابتسمت.

كانت تفكِّر في نفسها: «أنتم لا تعرفون أنكم تهينون أميرة. بمقدوري أن أزِجَّ بكم في السجن بإشارة من إصبعي، لكنني سأعفو عنكم فقط لأنني أميرة وأنتم كائنات بائسة حمقاء وضيعة لا تعرف أن تتصرف أفضل من ذلك!»

وفي إحدى المرات عندما كانت سارا مشغولة بتلك الأفكار، بدا أن الآنسة منشن تقرأ أفكارها؛ فلسبب ما (لم تعرفه الآنسة منشن نفسها)، اقتربت من سارا وضربتها بقبضة يدها على جانب رأسها على مرأى ومسمع من جميع الفتيات الأخريات.

قالت الآنسة أميليا في ذهول: «أختي!» فقد بدا لها أن سارا كانت واقفة لا تفعل شيئًا. علاوة على أن أختها لم تعتد ضرب سارا (وبيكي أيضًا) قط في الفصل المدرسي. قالت الآنسة أميليا: «لِمَ فعلتِ هذا؟ هل تفوهت سارا بكلام مسيء؟»

اعترفت الآنسة منشن: «كلا، لكنها كانت تفكر في شيء ما، وأنا موقنة من هذا.» ثم ضيَّقت عينيها وهي تنظر إلى سارا شزرًا.

قالت الآنسة منشن: «كنتِ تفكرين في أمر وقح، اعترفي!»

أجابتها سارا بثبات: «أجل.»

صرخت الآنسة منشن: «وكيف تجرئين على التفكير؟»

كان سؤالها سخيفًا حتى إن عددًا من الفتيات ضحكن.

احمرَّ وجه الآنسة منشن خجلًا، فصحَّحت سؤالها: «أقصد فيم كنتِ تفكرين؟»

ظنَّت سارا أنه ربما يمثل خطرًا عليها أن تجيب الآنسة منشن، لكنها رأت أنه من واجبها أن تعطي إجابة أمينة.

استهلت سارا كلامها في تأنٍ وجديَّة: «كنت أتساءل عن شعورك إذا اكتشفتِ أنني أميرة حقًّا. أتساءل هل سيتملكك الفزع، أم ستندمين على أنكِ حبست أميرة حقيقية في عليتك، وكنتِ تسيئين معاملتها طوال الوقت.»

كانت جميع الفتيات الأخريات ينصتن عن كثب، لا يُسمع نفس إحداهن وهن يترقَّبن في شغف سماع رد الآنسة منشن.

صرخت الآنسة منشن وهي تلهث: «اذهبي إلى غرفتك الآن!» وشعرت وكأنها ستخرّ مغشيًّا عليها. كيف لمثل هذه الفتاة المغرورة الصغيرة أن تقهرها؟ اشتد غضب الآنسة منشن حتى إنها لم تعد تستطيع التحكم في أعصابها، فالتفتت إلى التلميذات، وصرخت فيهن: «وأنتن، أيتها الفتيات، انتبهن إلى دروسكن!»

همست جيسي إلى لافينيا التي بدت وكأنها دُهِشت من رد سارا مثل الآنسة منشن: «هل رأيتِ أمارات التشامخ على وجهها الصغير؟ لن أندهش على الإطلاق إذا اتضح أنها شخصية مهمة بالفعل! أكاد أتمنى أن تكون كذلك!»

في إحدى الأمسيات حدث أمر غريب للغاية. كان أطفال أسرة لارج في طريقهم إلى إحدى الحفلات. وفيما كانوا يستقلون عربتهم، مرت سارا بهم. صعدت فيرونيكا أوستاسيا لارج وروزاليند جلاديز لارج (كانت سارا هي من اختلق هذه الأسماء) اللتان ترتديان

ثوبين جميلين ووشاحين حول خصريهما إلى العربة، يتبعهما جاي كلارنس لارج البالغ من العمر خمس سنوات.

وكان كلارنس طفلًا جميلًا ذا وجنتين ورديتين نضرتين وعينين زرقاوين، حتى إن سارا نسيت أمر السلَّة التي بيدها وهيئتها الرثَّة الغريبة. وبدلًا من أن تسرع في طريقها، كما كانت تفعل مؤخرًا لدى وجودها وسط العامة، توقفت لحظة لتنظر إلى جاي كلارنس.

كان اليوم يوم عيد الميلاد، فأخذ جاي كلارنس يسترجع ما أخبره به أبواه من أن هناك أطفالًا فقراء في العالم لا يحظون بهدايا عيد الميلاد الجميلة، أو بعشاء عيد الميلاد الدافئ الشهي. وقد أحزنت هذه الأقوال جاي كلارنس وكدرته للغاية حتى إنه أقسم أن يعثر على أحد هؤلاء الأطفال الفقراء — مثل تلك الفتاة التي تقف أمامه — ويعطيه كل النقود التي يحتفظ بها في جيبه. لم يكن جاي كلارنس يدرك الكثير عن النقود، وقد ظن أن كنزه الصغير قد يثري أحدهم. ولأنه كان يتمتع بنفس كريمة، فقد سُرَّ بأن يفعل هذا، وبدت سارا الاختيار الأمثل.

ناداها جاي كلارنس: «يا صغيرتي المسكينة!» ثم وضع يده في جيبه ليُخرج نقوده وقال: «إليكِ مدخراتي، سوف أعطيكِ إياها.»

طرفت سارا بعينيها، وأدركت على الفور أنها بدت كالأطفال المتسولين المساكين التي كانت تراهم عندما كانت تعيش أفضل أيامها، فاحمر وجهها، ثم شحب.

ردت سارا: «لا، لا! أقصد، شكرًا لك، لكنني لا أستطيع أن أقبلها.»

لم يكن صوت سارا كصوت شحاذة صغيرة مسكينة حتى إن فيرونيكا أوستاسيا (التي كان اسمها الحقيقي جانيت) وروزاليند جلاديز (التي كان اسمها الحقيقي نورا) مالتا إلى الأمام كي تنصتا.

ترجاها جاي كلارنس: «أرجوكِ اسمعيني أيتها الشحاذة الصغيرة المسكينة.» وكانت شفته السفلى ترتجف، فكانت تشبه إلى حد ما شفة لوتي وهي ترتجف، وبدا أنه سوف يهم بالبكاء. قال الصبي: «بمقدورك أن تشتري طعامًا بهذه النقود. ألستِ جائعة؟»

لم يكن الصبي يعرف أن سارا تحتاج إلى الدفء والحياة السعيدة التي ينعم بها أطفال أسرة لارج أكثر من حاجتها إلى الطعام. لكن سارا كانت جائعة أيضًا، وكان جاي كلارنس حسن النية وطيبًا للغاية، فأدركت أنه ليس من دماثة الخلق أن ترده. لذا مدت يدها، وأخذت العملات، ووضعتها بكبرياء في جيبها.

عانقته سارا قائلة: «شكرًا لك يا جاي كلارنس. يا لك من فتى عطوف لطيف!» ثم أسرعت في طريقها مبتعدة عنهم وعيناها تزرف الدمع.

سأل الفتى: «لماذا نادتني باسم جاي كلارنس؟» (كان اسمه الحقيقي دونالد).

سألت جانيت: «ولماذا كانت تتحدث برقي جمّ؟ فلو كانت شحاذة لقالت: «أشكرك يا سيدي»، ولكانت انتزعت العملات، وربما انحنت تعبيرًا عن امتنانها.»

قالت نورا: «أظن أنها خادمة في هذه المدرسة الواقعة في الميدان، لكنها ليست متسولة بالطبع على الرغم من هيئتها الرثَّة.»

ومذ ذلك الحين فصاعدًا، باتت أسرة لارج شغوفة بشأن سارا تمامًا كما كانت هي شغوفة بشأنهم. ولمّا لم يكونوا يعرفون اسمها، صاروا يلقبونها: «الفتاة الصغيرة التي ليست شحَّاذة.»

الفصل الثامن

على الجانب الآخر من الجدار

في المطبخ كان أمرًا غريبًا أن الخدم يعرفون كل شيء وينهمكون في القيل والقال. وهناك عرفت سارا المزيد حول الرجل الهندي الذي انتقل للعيش في المنزل المجاور؛ لقد جاء من الهند، لكنه في حقيقة الأمر إنجليزي عاش في الهند فقط أثناء إدارته مشروعًا جديدًا هناك. وقد تدهورت حالته الصحية كثيرًا جرّاء إصابته بالحُمَّى الدماغية، ولم يتعاف تمامًا بعد. وقد بدا أنه فقد ثروته كلها، وكاد يموت من شدة الخزي، علاوة على مرضه.

بيد أن طالعه تبدَّل، وأُعيدت إليه كل ثروته، لكنه لا يستطيع أن يتحمل فكرة أنه كان السبب في خذلان رفيقه من المدرسة وابنته الصغيرة.

اقشعرَّ بدن سارا لدى سماعها تلك الكلمات.

كانت قصة الرجل الهندي تشبه كثيرًا قصة والدها، حتى إنها لو لم تره، لظنت أنهم يتحدثون عن أبيها. لكنها سُرَّت (على الأقل من أجل الرجل الإنجليزي) لأن قصته انتهت في النهاية إلى حال أفضل من قصة والدها. ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، احتلَّ الرجل الهندي مكانة خاصة في قلبها.

وعندما كانت تُؤمر بالخروج ليلًا لجلب الأشياء، لم تعد تدمدم كما كانت من قبل، وإنما صارت الآن في قمة الحماس؛ إذ أتاح لها هذا فرصة أفضل لرؤية صديقها الخفي الجديد عبر نافذته المضيئة وهو يحدق في حزن إلى ألسنة النيران المضطرمة في المدفأة. وفي الليل كانت تستلقي في سريرها تتساءل حوله. تمنت أن يكون له ابنة صغيرة؛ «سيدة صغيرة» تدلِّلــه مثلما كانت تدلل والدها. آه، والدها العزيز! كأنَّ أزمنة قد مرت منذ أن كانت تجلس على ركبتيه تتحدث إليه في أمور هامة.

في نفس الوقت وعلى الجانب الآخر من الجدار في البيت المجاور، كان الرجل الهندي غارقًا في أفكاره أيضًا.

كان السيد كاريسفورد (كان هذا اسمه الحقيقي) يفكر في أنه يجدر به أن يكون أكثر سعادة؛ فهو رجل محظوظ على الرغم من كل شيء. فبعد فترة من النسيان الذي لحق به من جرّاء إصابته بالحُمَّى الدماغية، حيث ظن أنه فقد كل شيء، عادت إليه ثروته من جديد، وكان عقله يتماثل للشفاء أيضًا. وقد كوّن الكثير من الصداقات، من بينها صداقته بالسيد كارميشيل جاره (رب أسرة لارج وهذا اسمه الحقيقي). وكانت بنات السيد كارميشيل الصغريات، ولا سيما جانيت ونورا، مدعاة لسعادته. فكانتا تزورانه من حين لآخر، وتحضران له الحلوى، وتحكيان له القصص الممتعة حول يومهما.

وذات مرة قصَّت عليه جانيت ونورا قصة غريبة للغاية مع أنها كانت تخلو من المتعة؛ لقد أخبرتاه عن لقائهما بالفتاة الصغيرة التي لم تكن شحَّاذة. وحدث أن رام داس سمعهما، فأتى ليضيف إلى قصتهما.

قال رام داس: «لا بد أنها نفس الفتاة الصغيرة التي تعيش في علية المدرسة المجاورة!» وأخذ يصف غرفة سارا الخاوية بأرضيتها الخشبية المتآكلة، وطلائها المتساقط، ومدفأتها الصدئة الفارغة، وفراشها المتحجر الصغير.

سأل السيد كاريسفورد: «تُرى كم من خادمات صغيرات مسكينات في الخارج تنمن على مثل تلك الأَسِرَّة المتحجرة المريعة فيما نتكئ نحن في سلام على الوسادات المصنوعة من الريش؟» بدا أن هذه الفكرة تغرقه في مستنقع أعمق من الحزن.

ناشده السيد كارميشيل الذي كان قد جاء لاصطحاب بناته: «صديقي العزيز، لا يجب أن تفكر في مثل هذه الأمور، فأنت لا تزال واهن الصحة. من فضلك حاول أن تنال قسطًا من الراحة وألا تزعج نفسك هكذا.»

لكن السيد كاريسفورد لم يستطع التوقف عن التفكير في سارا وغرفتها المزرية في العلية.

وبعد انقطاع قليل عن الكلام قال في هدوء: «أتظن أن الفتاة الأخرى ...» (ثم أخذ يفكر في نفسه ويقول: «الفتاة التي لا أنفك عن التفكير فيها والبحث عنها.») «... يمكن أن تكون في مكان مشابه، وتعيش في مثل هذا البؤس والشقاء؟»

لم يعرف السيد كارميشيل بم يجيب. قطعًا كان يدرك ما الذي يقصده صديقه. لكن لم تكن هناك ردود شافية.

لقد أخبره السيد كاريسفورد قصة كابتن كرو وابنته بأكملها؛ فالسيد كاريسفورد كان قد ذهب إلى الهند كي يستهل العمل في مشرع تجاري مربح في منجم ماس، وعليه دعا رفيقه القديم في غرفة المدرسة، كابتن رالف كرو، ليشاركه.

سار كل شيء على ما يرام إلى أن خرّ كلاهما مريضًا بحُمَّى الأدغال التي تؤثر على الدماغ. وكانت الحمى قد أثَّرت أكثر في كاريسفورد، فأصابته بآفة الجنون حتى إنه كان على قناعة تامة أن عمله قد انهار. ووسط اضطراب عقله وخوفه الشديد من خسارة أمواله وأموال صديقه، لم يستطع أن يواجه صديق عمره، فولَّى الأدبار، وانتهى به الحال في إحدى المستشفيات حيث لم يفق من غشيته طيلة أسابيع، أو على الأقل كما قيل له.

وبالطبع عندما فاق من غيبوبته، كان أعز أصدقائه قد مات ودُفن بالفعل.

أخبر كاريسفورد السيد كارميشيل ووجهه مكسو بالألم: «مات وهو يظن أنني تسببت في فقره، ثم لذت بالفرار!»

لقد كانت قصة حزينة بالفعل، لكن هذا لم يكن أسوأ ما فيها، فكابتن كرو صديق كاريسفورد كان لديه ابنة صغيرة، ولقد دأب كرو على التحدث عن ابنته، وقد علم كاريسفورد أن الفتاة في مدرسة داخلية في الخارج تنتظر دعوة والدها كي تعود إلى الهند. كان هذا هو كل ما يعرفه عن الفتاة، فلم يكن يعرف المدينة أو حتى البلد التي تقع فيها المدرسة الداخلية. ربما تكون في باريس، أو لندن، أو أي مكان آخر في أوروبا.

والأدهى من كل هذا أنه لا يعرف حتى اسم الفتاة الصغيرة، فمتى أتى والدها على ذكرها أشار إليها باسم «السيدة الصغيرة». لا بد أن الفتاة في مكان ما تعاني البؤس والشقاء، وهو مكتوف الأيدي لا يستطيع أن يفعل شيئًا حيال ذلك.

قال السيد كارميشيل في محاولة للتخفيف عن صديقه: «أجل، من المؤسف والمخزي أن فتاة باريس لم تكن الفتاة المقصودة، لكننا لن نكف أبدًا عن البحث عنها. سوف نبحث عنها في كل الأرجاء، وسنعثر عليها. وفي غضون أيام معدودات سأتتبع الخيط الذي توصلتَ إليه وسأذهب إلى روسيا للبحث عنها في موسكو.»

صاح كاريسفورد المسكين وهو يمد يده ليمسك بيد صديقه: «أشكرك شكرًا جزيلًا، لو كنت صحيح البدن، لذهبت بنفسي ... لا بد أن أعثر على «السيدة الصغيرة». لا بد أن أعثر عليها!»

قال رام داس ناصحًا: «وحتى ذلك الحين، ربما يمكننا أن نساعد «السيدة الصغيرة» التي تقطن المدرسة المجاورة، ما رأيك يا سيدي؟»

أضاءت عينا كاريسفورد واعتدل في جلسته، وسأل: «ماذا تقترح؟»

ابتسم رام داس وأخرج مفكرة صغيرة، واقترب بمقعده من السيد كاريسفورد وقال: «حسنًا، مبدئيًّا، قد نحاول إعادة طلاء الغرفة وإضافة القليل من التعديلات.»

في ظهيرة اليوم التالي، وفيما كانت سارا تعمل بالخارج، كان ملكيسيديك مشغولًا هو الآخر، وكان عمله يتلخص في تمشيط غرفة سارا بحثًا عن أي فتات فائض سقط منها ليقتات به. وكان ملكيسيديك يدرك جيدًا أنه مهما كان قدر الطعام الذي تتناوله شريكته في الغرفة قليلًا، فإنها دائمًا تترك له قطعة صغيرة.

وربما لم تكن غرفة سارا ملائمة لفتاة صغيرة، لكنها كانت مناسبة تمامًا للفأر، إذ كانت الغرفة هادئة عادة.

لكن في هذا اليوم، كان هناك ضجيج وصخب شديدين؛ بدأ الأمر بصوت شيء يتحرك على السقف قادمًا من جهة النافذة، وبعدها صدر صوت عن فتح النافذة.

ركض ملكيسيديك خلف الجدار وأخذ يحدق من جحره الصغير، فرأى وجهين يطلان عبر النافذة تعلو كليهما أمارات الحذر والاهتمام. لقد كانا رام داس ومعه غلام آخر؛ سكرتير كاريسفورد. لكن بالطبع لم يكن ملكيسيديك يعرف ذلك. لذا سكن في مكانه بلا حراك، وأخذ ينتفض من الخوف كعادة الفئران!

لمح السكرتير، الذي تسلل عبر النافذة وراء رام داس، ذيل ملكيسيديك المرتجف، فهمس إلى رام داس في خوف: «هل هذا فأر؟»

رد رام داس: «أجل، لكن الطفلة لا تخشى منه، فهي صديقة الجميع.»

قال السكرتير: «يبدو أنك تعرف الكثير عنها.»

وافقه رام داس: «أعرفها تمام المعرفة؛ فعادة ما أراقبها من نافذتي كي أتأكد من أنها بخير، أراقبها في حزنها، وفي أفراحها المتواضعة، في بردها، وفي جوعها؛ أعرف متى يتسلل أصدقاؤها لزيارتها، ومتى يتركونها وحدها لتظل تبكي إلى أن تغط في النوم. ولأنني أستطيع أن أسمعها من حين إلى آخر عبر النافذة المفتوحة، فأنا أعرف الأشياء التي تتخيلها كي تتمكن من البقاء على قيد الحياة.»

حاول السكرتير جاهدًا أن يفهم فسأله: «وهل نحن هنا بسبب عالمها الخيالي هذا؟»

ابتسم رام داس، وقال: «بالضبط.»

ثم أخرج مفكِّرته مرة أخرى، وكان قد كتب بالفعل صفحات عديدة حول سارا منذ ذلك اليوم الذي استرق فيه السمع إليها وهي تخبر إرمنجارد ولوتي بكل شيء يمكن أن تئول إليه العلية إذا أطلقتا العنان لخيالهما فحسب.

وكان مما كتب: «سجادة ناعمة زرقاء سميكة على الطراز الهندي.» وكتب تحتها: «وأريكة وثيرة، وسجادة من جلد النمر أمام المدفأة، ومصابيح؛ ورسومات على الجدار.»

تعجب السكرتير وهو يجلس على فراش سارا، وقال: «يا له من فراش كريه! إنه صلب كالحجر، والبطانية تقيك بالكاد من البرد!»

رفع رام داس مفكِّرته، فكان مكتوبًا في نهاية إحدى الصفحات بالخط العريض: «فراش وثير؛ غطاء سرير حريري دافئ.»

سأل السكرتير: «أتظن حقًّا أن بمقدورنا أن نمنحها كل شيء تخيَلَته؟»

أجاب رام داس: «سوف نمنحها أكثر بكثير مما تتخيل أو تفكر، لقد وافق السيد كاريسفورد على أن يمول العملية السرية. لقد مرض حزنًا على ابنة كابتن كرو المفقودة حتى إنه مستعد أن يفعل كل ما بوسعه كي يساعد هذه الفتاة في الوقت الراهن.»

ابتسم رام داس لدى تذكره شعاع الأمل الذي عاد إلى عين سيده عندما كانا يتحدثان بشأن الخطة السرية، وقال: «سيكون هذا الأمر في مصلحة سيدي.»

سأل السكرتير: «وهل تظن أنه يمكنك فعل كل هذا وهي نائمة؟»

أكد له رام داس: «يمكنني أن أسير بخفة وكأن قدميّ مصنوعتان من القطيفة، علاوة على أن الأطفال ينامون نومًا عميقًا، حتى البائسين منهم.»

قال السكرتير: «عندما تستيقظ الفتاة ستظن أن ساحرًا قد زار غرفتها! مثل قصص «ألف ليلة وليلة»!»

وافقه رام داس الرأي، وبعدما دون بضع ملاحظات أخرى، تسلل كلاهما عائدين عبر النافذة في هدوء كما جاءا.

تنفس ملكيسيديك الصعداء، وبعدما تأكد له أن الغريبين قد رحلا، خرج من جحره مرة أخرى وأخذ يجري في أرجاء الحجرة على أمل أن يكون الغريبان المرعبان قد أسقطا بعض الفتات.

الفصل التاسع

ماذا تفعل الأميرة في موقف كهذا؟

أخذت أيام الشتاء تزداد قصرًا وبرودة حتى إن سارا كانت تزداد هُزالًا وإنهاكًا يومًا بعد يوم.

ولم يكن حال بيكي أفضل منها كثيرًا.

قالت بيكي في صبيحة أحد الأيام قبل أن تبدآ يومهما: «لولا وجودك يا آنسة، لماتت السجينة في الزنزانة المجاورة لكِ.»

وبعدها هبطت الفتاتان درجات السلم كي تستهلا عملهما الشاق الممل.

وكان على سارا أن تتم الكثير من المهام في هذا اليوم، ولأن الطاهية كانت متكدرة المزاج هذا الصباح، بدا أنها ستضطر أن تفعلها وهي خاوية المعدة.

كانت الشوارع غارقة في الضباب البارد الرطب، حتى إن ملابس سارا البالية سرعان ما ابتلت عن آخرها، وتسللت المياه الباردة إلى داخل حذائها المهترئ فأخذ يصدر صوتًا مزعجًا، وبدت الرياح كالسكّين تخترق جسدها عبر معطفها المهلهل الذي بات ضيقًا عليها.

فكّرت سارا في صمت: «آه يا بيكي، لعلي أنا التي سأموت اليوم.»

وإذ بعين سارا تقع على شيء يلمع تحت قدميها مباشرة في الوحل. ولمّا انحنت لأسفل كي تلقي نظرة عن قرب، تبين لها أنها بضع عملات بالفعل. ربما سقطت من ثقب في جيب شخص ما. التقطتها بيدها الحمراء الباردة.

قالت سارا لاهثة: «إنها نقود!»

وكان يقع في نفس الشارع على بعد مسافة قصيرة متجر لبيع المخبوزات، حيث تضع امرأة بدينة بهية الطلعة صينية من الكعك المحلى اللذيذ الطازج في نافذة عرض مضيئة.

كان أكثر ما تتمناه سارا هو أن تأخذ النقود وتشتري بها بعضًا من الكعك المحلى الطازج. وبعد أن أجرت بعض الحسابات في ذهنها، وجدت أنها قد تشتري أربع كعكات.

لكنها عبست، إذ شعرت أنه من الخطأ أن تستخدم مالًا قد ضاع من شخص آخر وقد يكون في حاجة إليه، فنظرت حولها لتبحث عن أي شخص لتسأله عن المال، لكن لم يكن أحد هناك، فقررت أن تسأل على الأقل المرأة في محل بيع المخبوزات إذا كانت هي من فقد هذا المال.

نظرت المرأة إلى سارا في استغراب.

ثم أجابتها: «يا إلهي! لا. هل عثرت عليه؟»

قالت سارا: «أجل، في الوحل.»

فأجابتها المرأة: «حسنًا، فلتحتفظي به، فهذا الشارع شديد الازدحام، ولن تكتشفي قط من الذي فقده.»

قالت سارا: «أعرف، لكنني فكرت في أن أسألك فحسب.»

قالت المرأة وهي تنظر إلى سارا في تقدير واحترام: «قليلون هم من يفعلون مثلك. هل ترغبين في شراء شيء؟»

أجابتها سارا: «أجل، أشكرك. أربع كعكات من فضلك.»

وكانت المرأة قد رأت أن سارا تحملق إلى الكعك في نهم شديد، وكأنها ستأكل مائة كعكة في قضمة واحدة كبيرة، لذا تعطَّفت ووضعت ست كعكات في الكيس بدلًا من أربع.

قالت سارا وهي تنظر إلى الكيس وقد لاحظت الخطأ: «طلبتُ أربع كعكات فحسب، من فضلك. لا أستطيع أن أدفع سوى ثمن أربعة.»

قالت المرأة: «لقد وضعت اثنتين مجانًا؛ فأنا موقنة أنك قادرة على التهامها كلها، ألستِ جائعة؟»

اغرورقت عينا سارا، وقالت: «أجل، أنا أتضور جوعًا. أشكرك شكرًا جزيلًا!»

بيد أنه فيما كانت سارا في طريقها إلى الخروج من المتجر اعترض طريقها شيء ما، أو بالأحرى شخص ما؛ فتاة صغيرة أكثر إثارة للشفقة من سارا نفسها، فتاة لا تزيد عن كونها كتلة من الملابس البالية ينتأ منها قدمان عاريتان صغيرتان حمراوان وملطختان بالوحل، إذ لم تكن ملابسها طويلة بما يكفي لتغطيتها. وفوق هذه الملابس، رأت سارا وجهًا متسخًا تبرز منه عينان جائعتان كبيرتان تشبهان صحن الفنجان، ورأسًا تعلوه كتلة متشابكة من الشعر، حتى إنها بدت مثل حيوان بري.

فكرت سارا في نفسها: «هذه الفتاة أسوأ مني حالًا.»

وبينما دنت سارا من الفتاة الصغيرة، حولت الفتاة وجهها بعيدًا عنها، وكأن سارا ستصرخ في وجهها أو ستزيحها من طريقها مثلما يفعل الباقون.

سألتها سارا: «هل أنتِ جائعة؟»

رفعت الفتاة وجهها في ذهول، وأجابت: «أجل، أنا جائعة.» وأخبرت سارا أنها لم تتناول الطعام طيلة الأيام الماضية.

ولم تصدق سارا نفسها في أنها تنوي أن تعطي من طعامها للفتاة الصغيرة، لكنها فكرت في نفسها: «ماذا تفعل الأميرة في موقف مماثل؟»

وعندئذ مدت يدها في الكيس، وأخرجت واحدة من الكعك، وأعطتها للفتاة الأخرى التي جلست منتصبة وخطفتها من يد سارا وحشرتها في فمها لتلتهمها في قضمة واحدة كبيرة كالوحوش الضارية.

سمعت سارا الفتاة وهي تقول في استمتاع جمّ: «يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!»

وبيدين مرتجفتين أخرجت سارا ثلاث كعكات أخرى وأعطتها للفتاة لتشاهدها وهي تلتهمها التهامًا بنفس الطريقة.

شعرت سارا وكأنها سيُغشى عليها عندما أعطت الفتاة الكعكة الخامسة، لكنها تشبثت بكعكتها الوحيدة الأخيرة، وتمكنت من أن تتماسك وتستدير وتسير بعيدًا.

وكانت شحَّاذة لندن الصغيرة لا تزال وراءها تزدرد الكعك. وكانت تنوي في خضم التهامها للطعام أن تشكر سارا، لكن سارا لم تكترث لهذا.

في تلك الأثناء لم تصدق المرأة، التي كانت تراقب الموقف برمته من نافذة المتجر، ما يحدث أمام عينيها.

تعجبت المرأة: «مستحيل! لقد أعطت الفتاة كعكها لتلك الشحاذة الصغيرة! مع أنها تتضور جوعًا هي الأخرى! كان هذا واضحًا وضوح الشمس في عينيها.»

ثم فتحت المرأة باب متجرها، ودعت الشحَّاذة إلى المتجر وسألتها: «هل أعطتكِ هذه الفتاة كعكها؟»

أومأت الشحَّاذة الصغيرة.

– «كم كعكة؟»

– «خمس.»

فالتفتت المرأة مرة أخرى إلى الطريق حيث كانت سارا تقف محزونة الفؤاد.

وقالت: «ليتها ما اختفت سريعًا، ليتني أعطيتها دستة كاملة من الكعك!»

ثم التفتت إلى الفتاة، وقالت لها: «هل ما زلت جائعة؟»

أجابتها الفتاة: «جائعة كما الحال دائمًا.»

قالت المرأة: «حسنًا، تعالي إلى هنا، واستدفئي.» ومع أن المرأة نفسها كانت عاملة مسكينة، فقد عرضت أن تساعد الفتاة إكرامًا لسارا. قالت المرأة: «متى شعرتِ بالبرد والجوع، يمكنك أن تدخلي إلى هنا، أسمعتِ ما قلته لكِ؟ هذا أقل ما يمكن فعله من أجل تلك الفتاة.»

كانت سارا تمسك بإحكام بكعكتها الباردة عندما أوشكت على بلوغ المدرسة، ولكنها توقفت لحظة أمام منزل أسرة لارج؛ إذ كان الباب الأمامي مفتوحًا وكانت الحقائب تُحمل إلى العربة فثمة شخص مسافر في رحلة.

قبل السيد لارج زوجته في الممر ثم هبط درجات السلم متجهًا إلى العربة التي كانت في انتظاره.

قال له أحد أولاده بصوت عال من بعيد: «هل ستكون موسكو مكسوة بالجليد؟ هل ستقابل القيصر؟»

رد عليه السيد لارج وهو يضحك ضحكة ودودة: «سأكتب لك وأخبرك بكل شيء عن موسكو. طاب مساؤكم يا أحبابي! أترككم في رعاية الله!»

في تلك اللحظة ظهر جاي كلارنس في الممر وقال بصوت مرتفع: «إذا عثرت على الفتاة الصغيرة، فلترسل لها محبتنا!»

استقل السيد لارج عربته، وانغلق الباب الأمامي.

فكرت سارا في داخلها: «تُرى من تكون هذه الفتاة الصغيرة التي سيذهب للبحث عنها بهذه الجدية.»

جرَّت سلَّتها الثقيلة، ثم دخلت، وأغلقت الباب وراءها.

وبالطبع لم تكن لديها أدنى فكرة عن أنها هي نفسها حل لغز ابنة كابتن كرو المفقودة.

الفصل العاشر

المأدبة العظيمة

عندما وصلت سارا إلى المنزل هذا المساء، كانت منهكة القوى تمامًا، وقد عنَّفتها الآنسة منشن لأنها عادت متأخرة من أداء المهام التي كلَّفتها بها؛ إذ لم تكن تبالي بأن الشوارع مبللة وموحلة، وبأنه يصعب على سارا أن تسير بسرعة بحذائها البالي. وكانت الطاهية متكدرة المزاج أيضًا، فصبت جام غضبها عليها أيضًا.

طلبت منها سارا في حياء وهي تضع المشتريات التي أحضرتها لها على الطاولة: «أيمكنني أن أتناول شيئًا؟»

فصرخت فيها الطاهية كعادتها: «انتهى العشاء.»

ترجتها سارا: «أرجوكِ، أنا جائعة للغاية.» وقد احتفظت بنبرة صوتها منخفضة خشية أن يرتجف صوتها.

فقالت الطاهية: «ثمة بعض الخبز في حجرة المؤن، وهذا هو كل ما ستحصلين عليه.»

ومع أن الخبز كان قديمًا ويابسًا وجافًا، التهمته سارا التهامًا، وقالت في داخلها: «أنا آسفة يا ملكيسيديك، فلن أترك لك فتاة واحدة الليلة!»

وكان دائمًا يصعب عليها أن ترتقي درجات السلم المؤدي إلى العلية، لكنها كانت في غاية الإنهاك الليلة حتى إن درجات السلم بدت بلا نهاية، فاضطرت أن تتوقف أكثر من مرة لتستريح.

وأخيرًا عندما بلغت درجات السلم العليا، رأت بصيصًا من الضوء يتسلل من تحت باب غرفتها، فظنتها إرمنجارد.

لكنها لم تكن في حالة مزاجية تسمح لها بصحبة أحد، غير أنها قالت لنفسها إنها إن كانت تسكن إحدى القلاع، وإرمنجارد تسكن قلعة أخرى، وجاءت لزيارتها فلن

تتأفف عندما تسمع صوت الأبواق من وراء الجسر المتحرك وتقول: «أرجوكِ، الوقت ليس مناسبًا.» لن تفعل سارا هذا وإنما ستنزل لاستقبالها، وعندئذ ستقيم مأدبة في غرفة الطعام، ثم تدعو المطربين ليصدحوا بالأغاني ويرووا القصص ...

حسنًا، لا توجد مأدبة ولا مطربون يغنون ويعزفون، لكن الأميرة سارا مستعدة لتحيي إرمنجارد عندما فتحت باب غرفتها. كانت إرمنجارد، التي ألفت وجود ملكيسيديك لكن ما زال يتملكها شيء من الخوف منه، تجلس في منتصف الفراش حيث لا يستطيع أن يقفز عليها.

همست إرمنجارد: «ذهبت الآنسة أميليا لتمضي الليل مع عمتها العجوز، ولن يتفقدنا أحد قط أثناء الليل، لذا بمقدوري أن أمكث هنا حتى الصباح إذا أردتُ ذلك!»

قالت سارا في نفسها: «لكن لِمَ تريدين ذلك؟»

قالت إرمنجارد: «تبدين في غاية التعب يا سارا؛ تبدين متعبة وشاحبة.»

قالت سارا وهي ترتمي على مسند القدمين المائل: «فعلًا أنا متعبة للغاية.»

قالت إرمنجارد في حسد: «على الأقل أنتِ نحيفة.»

شعرت سارا وكأنها تود أن تهز إرمنجارد بقوة وتقول لها لو أن الآنسة منشن جعلتها تتضور جوعًا مثلها، لصارت هي أيضًا نحيفة. لكن سارا أمسكت نفسها، وقالت في شجاعة: «لطالما كنت دائمًا طفلة نحيفة.»

وعندئذ فقط سمعت الفتاتان صوت ضجيج على درجات السلم في الأسفل؛ كان صوت الآنسة منشن الغاضب وهي تعنِّف بيكي.

همست إرمنجارد وقد تملكها الفزع: «هل ستأتي إلى هنا؟»

أجابت سارا: «لا أظن ذلك، لكن لا تصدري أي صوت تحسبًا لذلك!»

نادرًا ما تصعد الآنسة منشن إلى الطابق الأخير، لكن بدا أنها تفعل ذلك الآن وتجر بيكي معها.

سمعتاها تقول: «يا لكِ من لصَّة كاذبة! لقد أخبرتني الطاهية أن ثمة أشياء تُفقد من المطبخ على الدوام!»

ردت بيكي باكية: «لست أنا يا سيدتي من فعل ذلك. كنت جائعة للغاية، لكن لست أنا، لم أفعل هذا قط!»

صرخت الآنسة منشن: «كفاكِ كذبًا، ينبغي أن أطلب الشرطة وأزج بكِ في السجن! لقد سرقتِ نصف شطيرة لحم!»

سمعت سارا وإرمنجارد صوت صفعة قوية، فعلمتا أنها صفعت بيكي على وجهها، وعندئذٍ سمعتا صوت باب غرفة بيكي يُغلق، وبدأت الآنسة منشن تعود أدراجها. كانت بيكي تبكي بصوت منخفض على وسادتها.

ارتجفت سارا، وصرخت: «يا لها من طاهية بغيضة! إنها هي من يسلب الأشياء ثم تشير بإصبع الاتهام إلى بيكي؛ بيكي التي تتضور جوعًا حتى إنها تلتقط كسرات الخبز من سلة المهملات!» وضعت سارا يديها على وجهها وأجهشت في بكاء شديد.

حملقت إرمنجارد في صديقتها، ثم طرأت فكرة على ذهنها البليد فقالت في خجل: «سارا، لا أود أن أكون وقحة، لكن هل أنتِ جائعة؟»

كان هذا كثيرًا على أن تتحمله سارا، فانفجرت فيها: «ماذا تظنين يا إرمنجارد؟ أجل، أنا جائعة، بل أتضور جوعًا حتى إنني أكاد ألتهمك!»

التقطت إرمنجارد أنفاسها: «أشعر أنني حمقاء للغاية، لكنني لم أعلم هذا قط.»

ضحكت سارا وهي لا تزال تبكي: «لم أشأ أن أعلمك بهذا، فهذا سيجعلني أبدو شحَّاذة.»

صاحت إرمنجارد وهي تقفز قفزة خفيفة من شدة الحماسة التي غمرتها: «سارا!» وقد بدأت الأفكار تنهال على ذهنها بسرعة الآن، وكانت هذه فكرة رائعة بحق. «أرسلت لي عمتي ظهر اليوم صندوقًا يعج بكل ما لذّ وطاب؛ فهو يحتوي على الكعك، وشطائر اللحم، والتورتة المحشوة بالمربى، والكعك المحلى، وعصير البرتقال والعنب الأحمر، والتين، والشوكولاتة ...»

قاطعتها سارا: «كفى!» إذ بدأَتْ تشعر بالدوار.

قالت إرمنجارد: «سأتسلل إلى غرفتي لأحضرها إلى هنا ثم نأكل معًا، اتفقنا؟»

قالت سارا: «آه يا إرمنجارد، دائمًا يتحقق الخيال، أليس كذلك؟ ففي الوقت الذي تظنين فيه أنك لا تستطيعين المضي قدمًا وأن الحياة أصبحت بغيضة، يحدث شيء سعيد، ولا يبلغ السوء مداه أبدًا. يمكننا أن نتخيل أنه حفل عشاء! هل يمكنني أن أدعو السجينة في الزنزانة المجاورة؟»

وافقت إرمنجارد، وفي الوقت الذي ذهبت فيه لتحضر وليمة العشاء، طرقت سارا على الجدار طرقات الاستدعاء. وفيما كانت سارا بانتظار عودتها، أخذت تنظر حولها في أرجاء العلية بنظرة جديدة مليئة بالحماسة.

قالت سارا: «أنا في حاجة لمساعدتك يا بيكي كي نعد الطاولة من أجل مأدبة عظيمة!»

ولمّا وجدت سارا وشاح إرمنجارد الذي كان قد سقط على الأرض، أخذته وغطت به طاولة قديمة. أوه! يا للروعة، لقد أصبح هناك منضدة عشاء جميلة مغطاة بقماش أحمر فاره. وفي صندوق قديم بالغرفة، عثرت سارا على العديد من المناديل البيضاء القديمة، فوضعتها في نظام على مفرش المائدة الأحمر. ثم تخيَّلت سارا وبيكي وجود أطباق ذهبية عليها مناديل أنيقة.

عثرت بيكي أيضًا وسط أغراضها القديمة على قبعة صيفية مزينة بإكليل من الزهور الذابلة، فوضعتها سارا في منتصف الطاولة لتزينها بها. سألتها سارا: «أليست ألوانها خلابة؟ هل شممت من قبل مثل هذا العبير الذكي؟»

وفي تلك اللحظة، اندفعت إرمنجارد إلى داخل الغرفة منقطعة الأنفاس من حمل سلتها عبر السلم الطويل، فانبهرت لدى رؤيتها المائدة المعدَّة، وقالت: «يا إلهي! يا لها من قاعة احتفال رائعة!» ابتسمت سارا إذ لم تنس إرمنجارد الدروس التي تلقتها حول كيفية التخيل.

تنهدت بيكي: «تشبه مائدة الملكة.»

فقالت إرمنجارد لسارا: «ستكونين أنتِ الأميرة، وتجلسين عند رأس المائدة.»

لكن لم تكد الفتيات يتخذن مقاعدهن حول المائدة أو حتى تلمس أياديهن كعكة واحدة، حتى تجمد ثلاثتهن لدى سماعهن صوت شخص يرتقي درجات السلم غاضبًا، وبالطبع لم يختلفن حول هذا الشخص.

دفعت الآنسة منشن الباب بقبضة واحدة من يدها، فظهر أمامها ثلاثة وجوه مرتعدة.

قالت الآنسة منشن: «كنت أشك في حدوث شيء من هذا القبيل، لكن لم يخطر لي قط أنه يُستخف بي إلى هذه الدرجة. لقد أخبرتني لافينيا بالحقيقة!»

أجهشت إرمنجارد في البكاء، وتوسلت إليها: «أرجوكِ لا تعاقبي سارا أو بيكي، فالخطأ خطأي وحدي. لقد أرسلت لي عمتي هذا الصندوق، وكنا نقيم حفلًا فحسب ...»

قالت الآنسة منشن: «بحيث تكون الأميرة سارا عند رأس الطاولة. أنا على يقين أن هذا من تدبيرك يا سارا؛ فإرمنجارد لا تتمتع بالذكاء الكافي لتفكر في مثل هذا الأمر.»

التفتت الآنسة منشن، وحدَّقت في المائدة التي تحولت بفعل نظرتها إلى مائدة كئيبة ومثيرة للشفقة مرة أخرى، ثم قالت: «لا شك أنكِ من أعد كل هذه الحثالة.»

عندما أومأت سارا بالإيجاب، رفعت الآنسة منشن ذراعها، وبدفعة واحدة قوية وحقيرة، أزاحت كل الأطباق والزهور إلى سلة إرمنجارد، ثم أخبرت سارا: «لا إفطار ولا غداء ولا عشاء لكِ الغد.»

أجابت سارا في وهن شديد: «لكنني لم أحصل على أي غداء أو عشاء اليوم.»

ردت الآنسة منشن: «هذا هو غاية المراد!»

ثم التفتت إلى إرمنجارد، وقالت: «ما هذا الذي فعلتيه يا إرمنجارد، ماذا سيقول والدك إذا عرف أين كنتِ الليلة؟»

وفيما كانت الآنسة منشن تهم بالرحيل، استرعى انتباهها شيء ما على وجه سارا؛ ألا وهو نفس النظرة التي تثير ثائرتها دائمًا، واليوم بدت هذه النظرة مزعجة للغاية.

فسألتها: «لمَ تحدقين فيّ هكذا؟ فيم تفكرين الآن؟»

أجابتها سارا: «كنت أتسأل فحسب، ماذا كان سيقول والدي إذا عرف أين كنتُ الليلة؟»

فقدت الآنسة منشن أعصابها مرة أخرى، وقالت: «يا لكِ من فتاة صفيقة! سأتركك تتساءلين كيفما شئتِ.» وبعدما دفعت سلة الطعام إلى يد إرمنجارد، جرتها من مؤخرة عنقها، وتُركت سارا وحدها تمامًا في الظلام.

تركها الجميع باستثناء وجه رام داس الداكن اللون، الذي كان يقف على السطح خارج نافذة سارا ويراقب ما يحدث في غضب. وكان قد اقترب من نافذتها لأنه سمع صوت النقاش المحتدم عبر الجدران، وأراد أن يتأكد من أن صديقته الصغيرة بخير.

ورأى أن سارا لم تكن بخير مطلقًا؛ إذ انكمشت في فراشها تبكي حتى غلبها النعاس. ليت بوسعه هو وكاريسفورد أن يفعلا شيئًا حيال ذلك، ولعلَّ حالتها أن تتحسن بحلول الغد.

الفصل الحادي عشر

السحر

لم تعلم سارا كم من الوقت استغرقت في سباتها، لكن عندما أخذت تفيق بالتدريج في صباح اليوم التالي، وعيناها لا تزالان مغمضتين، شعرت بأنها في حاجة إلى المزيد من النوم. وكانت الآنسة منشن تتركها تنام ساعة إضافية يوم الأحد.

أو لعلَّها ما زالت غارقة في نومها، وتحلم بالفعل، وهل من طريقة بديلة لتشعرها بالدفء والراحة؟ عندما تمد يدها، هل من طريقة تشعرها بأنها تتدثر في لحاف دافئ سوى الأحلام؟ وكيف لها أن تسمع الطقطقة الخفيفة لألسنة اللهب في مدفأتها الصدئة القديمة سوى في الأحلام؟

بعد قليل فتحت عينيها، واستمر الحلم كالمعجزة. وفضلًا عن كل الأشياء التي تخيلتها — من السجادة الهندية الناعمة الزرقاء السميكة والأريكة الناعمة الوثيرة ذات الوسادات والسجادة المصنوعة من جلد النمر أمام المدفأة — كانت هناك طاولة صغيرة قابلة للطي. وكانت مغطاة بمفرش أبيض وتعلوها وليمة صغيرة ساخنة شهية من الحساء، والسندويتشات، والخبز المحمص، والفطائر.

وجدت سارا نفسها مستلقية في فراش جديد، وفوقها بطانيات دافئة ناعمة. كيف حدث هذا؟ لم يكن لديها أي فكرة. وعند طرف فراشها كان هناك ثوب حريري دافئ وزوج من الأخفاف المبطنة. والأروع من كل هذا، وجدت سارا بجانب المقعد بالقرب من المدفأة مجموعة من الكتب الجميلة.

وفيما أخذت سارا تنظر حولها، رأت مصابيح ملونة باللون الوردي، ولوحات وزينة على الجدران، وسجادًا ووسادات ملونة، وورودًا في مزهريات جميلة، وكمًّا هائلًا من الأشياء الأخرى الرائعة.

قالت سارا لاهثة: «لمَ لا يتلاشى هذا الحلم؟ لم يراودني مثل هذا الحلم من قبل؟»

قفزت سارا من فراشها، وهبَّت إلى أرجاء الغرفة تتحسس كل شيء، حتى إنها قربت يدها قدر استطاعتها من نيران المدفأة، فارتدَّت سريعًا إلى الوراء، وصرخت: «إنها ساخنة!» ارتدَت سارا الثوب وأخذت تمرره على وجنتها وصرخت أيضًا: «إنه دافئ وناعم للغاية!» ثم تذوقت بعضًا من الطعام الشهي الذي وُضع لها على الطاولة، وصاحت: «إنه لذيذ للغاية! وكل هذا حقيقي! أنا لا أحلم!»

وفجأة رأت سارا ورقة صغيرة موضوعة فوق الكتب مكتوب فيها: «من صديق إلى فتاة العلية.»

وما إن قرأت سارا هذه الكلمات، حتى صدر عنها رد فعل غريب؛ لقد نكَّست رأسها على الورقة، وأجهشت في البكاء، وقالت: «ثمة شخص يكترث لأمري. لديّ صديق.»

ولك أن تتخيل كيف كان بقية صباح سارا؛ على الفور دقت سارا على جدار بيكي دقات الاستدعاء، وأمضت الفتاتان الساعات المعدودات التالية تستدفئان أمام نيران المدفأة المضطرمة. في بادئ الأمر ظلت بيكي عاجزة عن التكلم من شدة الخوف، لكن ما إن تغلبت على شكوكها، حتى التهمت الفتاتان الطعام. والأهم من ذلك كله، أن عطف صديق سارا «السحري» الخفي بث السعادة في قلبيهما. وعلى نحو ما تراجع خوفهما من الآنسة منشن إلى مؤخرة عقليهما. وقررت سارا أن تحفظ العجائب التي حدثت لهما في طي الكتمان قدر المستطاع.

وبالطبع ستضطران أن تنزلا بعد قليل إلى أسفل من أجل العمل، لكن في هذا اليوم، فعلت الفتاتان هذا بكل شجاعة وقوة، وقد احمرت وجناتهما واشتدَّت خطواتهما.

وكان كل فرد في المدرسة قد سمع بما حدث الليلة المنصرمة، لذا كان من المتوقع أن تنزل سارا بوجه ذليل خجِل. لكن على العكس من ذلك، كانت تحلق في كل الأرجاء تعلوها سيماء الفخامة والهيبة أكثر من المعتاد.

همست لافينيا إلى جيسي: «إنها لا تبدو جائعة.» وكانت لافينيا قد سمعت بالعقاب الذي حلّ بسارا ولم تشعر بذرة من الأسف لأنها وشت بها. أردفت لافينيا: «لعلها تتظاهر بأنها تناولت طعامًا جيدًا!»

حذَّرتها الآنسة منشن بصرامة: «تذكري أنكِ منقوم عليكِ. وقاحة منكِ أن تتبختري في كل الأرجاء مزهوة بنفسك وكأن ثروة قد هبطت عليك من السماء!»

كان الطقس في هذا اليوم أشد ضراوة من اليوم الأخير الذي خرجت فيه سارا لأداء مهامها، إذ كان أشد رطوبة وبرودة وموحلًا أكثر من ذي قبل، وكانت سلتها أثقل،

والطاهية أكثر حدة وأشد غضبًا. لكن سارا استطاعت على نحو ما أن تتحمل كل هذا، وفكرت في أنه حتى لو تلاشى السحر من غرفتها عندما تعود إليها في هذه الليلة، فإنها سوف تظل دائمًا شاكرة ومدركة أن ذلك قد أنقذ حياتها.

عندما فتحت سارا باب غرفتها هذه الليلة، أخذ قلبها يخفق بشدة من هول المفاجأة، فأغلقت الباب وراءها، والتصقت به، وأخذت تدير نظرها من جانب إلى آخر؛ فما زال السحر موجودًا، ليس هذا فحسب، بل أحيا الغرفة أيضًا من جديد؛ إذ كانت النيران المُضرمة حديثًا تتوهج بشكل أكثر بهجة للعيون من قبل، وعجَّت الغرفة بالمزيد من الحلل الأنيقة والصور والوسادات. والأروع من كل هذا، كان بانتظارها عشاء شهي ساخن على الطاولة، وقد أُزيلت كل أطباق الإفطار المتسخة.

وعندما وصلت بيكي انفجرت في الضحك والقهقهة كأنها فقدت عقلها. وجلست الفتاتان لتناول العشاء كأنهما أميرتين.

ومنذ ذلك الحين فصاعدًا، تعود سارا كل يوم إلى غرفتها، لتجد شيئًا جديدًا قد أُضيف إليها. وعندما لم يعد هناك موضع قدم في غرفة سارا، تحول السحر ليفيض في غرفة بيكي. سألت سارا نفسها: «هل هذه غرفتي؟ وهل أنا تلك الفتاة الصغيرة ذات الثياب الرثَّة التي تعاني البرودة؟ لا بد أنني أعيش قصة خيالية؟»

لم يتغير أي شخص في معاملته الدنيئة للفتاتين، لكن هذا لم يعد يهم؛ فقد دبت الحياة مرة أخرى في وجناتهما التي بدأت تمتلئ. وبعد وقت قليل لم تعد أعينهما كبيرة على حجم وجهيهما.

قالت الآنسة أميليا للآنسة منشن: «تبدو كل من سارا كرو وبيكي في حالة جيدة بعد أن كانتا هزيلتين من قبل.»

هاجمتها الآنسة منشن في محاولة للتغطية على أفعالها الشنيعة: «ولم لا تبدوان كذلك؟! إنهما يُعاملان أحسن معاملة.»

أحيانًا كانت سارا تفكر في أن تختبئ وتمسك بصديقها الخفي أثناء قيامه بذلك، لكن هذا قد يفسد السحر. ومع ذلك أرادت أن تشكر وليّ نعمتها، لذا تركت له ورقة في الصباح التالي إلى جانب أطباق العشاء، ووقعتها باسم: «فتاة العلية.» وفي الصباح التالي اختفت الورقة مع أطباق العشاء.

الفصل الثاني عشر

استعادة الثروة

في صبيحة أحد الأيام وفيما كانت سارا وبيكي تستمتعان بوليمة الصباح السرية، إذ بصوت خربشة واهنة على النافذة، تلاها ظهور وجه القرد الذي رفع زجاج النافذة كما فعل في المرة السابقة، ودخل إلى غرفة سارا.

عندما صرخت بيكي رعبًا، هدأت سارا من روعها: «لا تخافي، فما هو إلا قرد صغير لطيف من المنزل المجاور. ألا يبدو كالرضيع الصغير؟»

قالت بيكي وهي تقترب منه بتؤدة: «رضيع قبيح للغاية. ماذا ستفعلين به؟»

أجابت سارا: «حسنًا، أعرف أن رام داس والرجل الهندي سيقلقان عليه كثيرًا عندما يكتشفان غيابه. لذا لا بد أن أعيده إليهما في الحال.»

في المنزل المجاور، لم يكن أحد قد لاحظ غياب القرد بعد؛ إذ كانوا مشغولين جميعًا بالسيد كارميشيل الذي عاد لتوه من موسكو حاملًا أخبارًا سيئة؛ إذ لم يستطع العثور على ابنة كابتن كرو الصغيرة. وهكذا فإن السيد كاريسفورد — الذي أدخلت مهمة رام داس السرية في المنزل المجاور السعادة إلى قلبه فترة من الزمن — أصبح على الفور حزينًا وبائسًا للغاية.

قال كارميشيل بصوته المبهج: «لا تيأس، سنعثر عليها بكل تأكيد.»

قطع حوارهما الإعلان عن قدوم زائرة، وأخبرهما رام داس أن الطفلة التي تقطن المنزل المجاور جاءت كي تعيد القرد الذي قفز إلى غرفتها العلوية.

اقترح رام داس على سيده: «رأيت أنه قد يسرك أن تراها وتتحدث إليها.»

قصَّ السيد كاريسفورد في عجالة على السيد كارميشيل تفاصيل خطته هو ورام داس السحرية لمساعدة هذه الفتاة التي تقطن المنزل المجاور، فصاح أطفال السيد كارميشيل في ابتهاج لدى سماعهم القصة.

عندئذٍ أُدخلت سارا التي انحنت انحناءة احترام لدى دخولها.

قالت سارا بصوتها العذب الجميل للرجل الهندي: «فرّ قردك مرة ثانية، وخشيت أن تقلق عليه. هل أسلمه إلى الخادم الهندي؟»

تعجبت نورا: «وكيف عرفتِ أنه خادم هندي؟»

أجابت سارا: «إنني أعرفهم جيدًا، فقد وُلدتُ في الهند.»

اعتدل الرجل الهندي في جلسته فجأة حتى إن سارا فزعت لحظة.

وقال: «سلها أنت يا كارميشيل، فأنا لا أستطيع.»

كان والد أسرة لارج العطوف يعرف كيف يسأل الفتيات الصغيرات. ولأن سارا كانت تحب سرد القصص، أفصحت في دقائق معدودات بكل شيء عن نفسها؛ بدءًا من الخسارة التي مُني بها والدها في مناجم الماس بسبب صديق خذله ثم ولَّى الأدبار، ووصولًا إلى إجبارها على العمل خادمة في المطبخ في مدرسة الآنسة منشن الداخلية. وعندئذ وصلت إلى الفصل الأخير من قصتها؛ وهو السحر الذي أنقذ حياتها.

قال الرجل الهندي بصوت واهن: «ما اسم والدك؟»

قالت سارا في فخر: «كابتن رالف كرو.»

لهث الهندي العليل قائلًا: «كارميشيل! إنها الطفلة!» ولحظة بدا أن كاريسفورد السقيم سيخرّ مغشيًّا عليه، فاضطر رام داس أن يهرع إلى خارج الغرفة ليحضر زجاجة النشادر التي وضعها تحت أنفه ليعيده إلى الوعي.

سألت سارا في خجل: «أي طفلة أنا؟»

تكلم السيد كارميشيل في هدوء حتى لا يروعها.

– «السيد كاريسفورد هو صديق والدك، لكنه لم يخن والدك ولم يخسر أمواله. بل ظنَّ فقط أنه مُني بالخسارة لأنه كان مريضًا للغاية إثر إصابته بالحمى الدماغية. وفي الوقت الذي تعافى فيه، كان والدك قد مات، ومنذ ذلك الحين والسيد كاريسفورد يبحث عنكِ. لقد بحث عنكِ في كل أنحاء أوروبا — في فرنسا وموسكو — وأنتِ هنا طيلة الوقت!»

أكملت سارا كلامه: «أجل، أنا هنا طيلة عامين في المدرسة المجاورة.» لم تستطع سارا أن تصدق كم طال انتظارها. وعندئذ راودتها فكرة فقالت له: «انتظر لحظة من فضلك، هل رام داس هو من جلب الأشياء إلى غرفتي عبر السطح؟»

أجابتها جانيت: «أجل! لقد كان السيد كاريسفورد صديقك الخفي الثري.»

طوَّقت سارا بذراعيها النحيفين الرجل الهندي وعانقته بكل ما أُوتيت من قوة.

قال كارميشيل في سعادة: «هذا هو الدواء الذي يحتاجه صديقي.»

وفجأة جاءت الآنسة منشن مندفعة إلى داخل الغرفة وخلفها إحدى الخادمات تلتمس العذر من الجميع؛ فقد رأت إحدى التلميذات سارا وهي تدخل إلى المنزل المجاور.

نهضت سارا من مكانها وقد ازداد وجهها شحوبًا، لكن السيد كاريسفورد وضع يده على رأسها ليهدئ من روعها.

قالت الآنسة منشن في ضجر: «آسفة على إزعاجكم، أنا الآنسة منشن مديرة مدرسة الفتيات الداخلية المجاورة. أعتذر بشدة عن الإزعاج الذي صدر عن هذه الطفلة.» ثم التفتت إلى سارا وقالت: «وأنتِ، عودي إلى المنزل في الحال! سوف ينزل بكِ أشد العقاب.»

لكن الرجل الهندي أمسك سارا بجانبه، وقال: «لن تذهب إلى أي مكان. إنها في منزلها الآن.»

ارتدَّت الآنسة منشن إلى الوراء في ذهول، ثم قالت لاهثة: «ماذا تعني؟»

لم يشأ السيد كاريسفورد أن يضيع المزيد من الوقت مع الآنسة منشن.

وعندئذ روى السيد كارميشيل القصة بأكملها؛ وأخبرها بأن كاريسفورد كان شريك كابتن كرو في مشروعه التجاري في مناجم الماس، وشرح لها كيف أن الثروة التي ظُن أنها فُقدت لم تعد فحسب وإنما عادت أضعافًا مضاعفة.

والآن ستئول جميعها إلى سارا.

وكانت الآنسة منشن، التي تفتقر إلى الذكاء، حمقاء للغاية حتى إنها سعت للقيام بمحاولة أخيرة من أجل الاستحواذ على ثروة سارا.

قالت الآنسة منشن: «لقد ترك كابتن كرو ابنته تحت رعايتي. ولن أسمح لها بالرحيل، سوف يقف القانون في صفي. وإذا مكثَتْ هنا، فلن أسمح لها برؤية صديقاتها مجددًا!»

صحح كاريسفورد كلامها: «القانون سيقف في صف سارا. ولا أظن أن آباء صديقات الآنسة سارا كرو سوف يرفضون دعوتها لهم لزيارتها في منزل حاضنها الجديد.»

ارتاعت الآنسة منشن؛ إذ كانت تعلم أن السيد كاريسفورد على صواب. ومن عساه أن يمانع في أن تلعب ابنته مع الوريثة المستقبلية لمثل هذه الثروة الهائلة؟ وهكذا بعد أن انحنت على نحو أخرق وهي تدمدم إلى نفسها، تسللت إلى الخارج.

وعندما وصلت منزلها، كانت الآنسة أميليا في انتظارها وقد جن جنونها.

انفجرت الآنسة أميليا في شجاعة غير معهودة: «لقد فاض الكيل. عادة ما كنت أفكر في أنكِ تعاملين سارا معاملة سيئة، لكنني لم أعترض قط. كانت سارا شجاعة بارَّة، وكانت ستجازيكِ عن أي معروف تصنعينه معها. لكنكِ لم تقدمي لها أي معروف قط، أليس كذلك؟ أنتِ امرأة أنانية متحجرة الفؤاد!»

قالت الآنسة منشن وهي تلهث: «أميليا!»

استرسلت الآنسة أميليا: «ومع ذلك كانت تتصرف دائمًا كأنها أميرة صغيرة بغض النظر عن سوء معاملتنا لها. والآن قد فقدِتها، وسوف تستحوذ عليها وعلى أموالها مدرسة أخرى. والأدهى من كل ذلك أنهم سيخبرون الجميع عن معاملتنا لها. وسوف يعرفون بأمر ملابسها الخفيفة البالية والفتات الذي كنا نرميه لها، والعمل الشاق الذي كنا نضعه على عاتقها. إذا تركت كل تلميذاتنا المدرسة وفقدنا كل شيء، فنحن نستحق ذلك عن جدارة!»

لم تعرف الآنسة منشن بم تجيبها، فكان صمتها اعترافًا منها بأن الآنسة أميليا على حق. والحقيقة أنه منذ ذلك الحين باتت الآنسة منشن تخشى أختها.

برحيل سارا أصبحت إرمنجارد بدورها راوية القصص؛ لقد عرفت بكل ما حدث من الخطاب المطول الذي بعثته سارا إليها.

أخبرت الفتيات الأخريات: «كانت هناك مناجم ماس يعج كل واحد منها بملايين الماسات. والآن ستصير سارا أميرة أكثر من ذي قبل بكثير! أرأيتن، كما كانت تتخيل بالضبط!»

لم تكن سارا قد كتبت إلى بيكي بعد، لكن بيكي سمعت مصادفة بحديث الفتيات الأخريات. ومع أنها كانت في قمة السعادة من أجل سارا، خشيت من أن يفارقها السحر الموجود في حياتها برحيل سارا.

وعندما بلغت درجات السلم الأخيرة المؤدية إلى غرفة سارا القديمة، توقفت وأخذت تفكر في أنه لن توجد نيران في المدفأة الليلة، ولا مصابيح وردية، ولا عشاء، ولا أميرة تروي قصصًا خيالية رائعة.

لكنها أقرت بأنها لا بد أن تواجه الواقع، ثم حبست دموعها، ودفعت الباب.

كانت بيكي محقة في شيء واحد فحسب؛ لم تكن هناك أميرة، لكن كانت هناك مصابيح وردية، وعشاء، ورجل داكن البشرة يعصب رأسه بعمامة بيضاء ويبتسم لها.

قال رام داس: «بيكي، سارا لم تنساكِ. لقد أخبرت السيد كاريسفورد بكل شيء، وهو يدعوكِ أن تأتي إليه غدًا، سوف تصبحين وصيفة الآنسة سارا.» ثم لوح بيديه إلى كل الأشياء الجميلة التي كان قد جلبها على مدى الأسابيع الماضية، وقال: «الليلة سوف أعيد كل هذه الأشياء إلى بيتي عبر السطح.»

وبعدها انحنى لها في احترام وتسلل عائدًا على ضوء السماء. عرفت بيكي من خلال خفة حركته ورشاقته كيف أنه تسلل إلى هنا كثيرًا من قبل.

وما أشد السعادة التي كانت تغمر أطفال أسرة لارج! فالصعاب والمغامرات التي مرت بها سارا جعلتها محل اهتمام الجميع. أراد الجميع سماع ما حدث لها مرارًا وتكرارًا، وكانت قصتهم المفضلة هي قصة المأدبة الملكية والحلم الذي اتضح أنه حقيقة.

ابتسم الرجل الهندي الذي كان يجلس إلى جانب سارا بجوار المدفأة؛ إذ كان هذا هو الجزء المفضل لديه من القصة أيضًا.

قالت سارا: «أنا في قمة السرور، أنا في قمة السرور أنك كنت صديقي الخفي!»

ربطت بينهما صداقة قوية، وبالطبع لم تعوضها هذه الصداقة عن فقدان والدها، لكنها كانت أفضل شيء بعده. وبدا أن سارا والسيد كاريسفورد متناغمان معًا. ومثلما كان والدها يفعل تمامًا؛ سُر السيد كاريسفورد بأن يهبها الأشياء ويعد لها المفاجآت السارة. وقد رأى أنه لا خوف من فساد أخلاقها من التدليل المفرط، لا سيما بعد الأحداث المروعة التي تعرضت لها.

وقد كانت سارا عند حسن ظنه بالفعل؛ إذ أخبرته بكل جرأة عن خطة تحتاج إلى مساعدته فيها.

سألها: «وما هي أيتها الأميرة؟ كيف لي أن أساعدك؟»

أخبرته سارا عن المرأة في متجر بيع المخبوزات، والشحَّاذة الصغيرة الجائعة التي تجوب الشوارع، وطلبت منه: «إذا كنت أملك وفرة من المال، فهل يمكنني أن أخبر هذه المرأة أنه في أيام البرد القارس يمكنها أن تطعم كل الأطفال الشحَّاذين الذين يتضورون جوعًا، ثم ترسل الفواتير إليّ؟»

وافق الرجل الهندي، وقال: «سوف نعد العدة لهذا الأمر صباح الغد.» وتعهَّد الرجل بينه وبين نفسه أن يسدد كل الفواتير بالفعل.

وفي صباح اليوم التالي، وبينما كانت الآنسة منشن تنظر بمرارة عبر النافذة، صعدت سارا إلى عربة أسرة لارج متدثرة بمعطف جديد من الفرو. وفي هذا اليوم، نفذت سارا

أولى خططها المتعددة لمساعدة الآخرين. لقد ذاقت «السيدة الصغيرة» الكثير من الحرمان والحزن، لكنها اجتازتها وهي تعرف أن العالم لا يزال يعج بالسحر.

وأدركت سارا أن هذه ليست سوى بداية رحلة حياة جديدة رائعة.